

نظرية الاتصال كمجال دراسي⁽¹⁾

Communication Theory as a Field of Study

أ.د. فضيل دليو

جامعة قسنطينة 3 (الجزائر) . foudil.delliou@univ-constantine3.dz

تاريخ الاستلام: 2025-07-21 تاريخ القبول: 2025-10-03 تاريخ النشر: 2025-12-20

ملخص:

تقوم هذه المقالة بإعادة بناء نظرية الاتصال كمجال حوار-جدلي وفقا لمبدأين: النموذج التأسيسي للاتصال كنموذج شامل (ميثا نموذج) والنظرية كممارسة خطابية شاملة (ميثا خطاب). وتزعم هذه المقالة بأن جميع نظريات الاتصال تجمعها علاقة متبادلة مهمة عندما تُعالج في الحياة العامة مصطلح "الاتصال" الغني عمليا بالمعاني. إن كل تقليد من تقاليد نظرية الاتصال يُستمد من بعض المعتقدات الشائعة حول الاتصال ويعتمد بلاغيا عليها مقابل تحديه معتقدات أخرى. كما ينشأ عن التكاملات والتوترات بين التقاليد خطابا نظريا شاملا يتقاطع مع الخطاب الشامل العملي الجاري في المجتمع وقد يُقدم معلومات عنه. تقترح المقالة مخططا لمجال الاتصال يتضمن عدة تقاليد نظرية في الاتصال: البلاغي، السيميائي، الظاهراتي، السيبرنتيكي، النفسي-الاجتماعي، الاجتماعي-الثقافي، والنقدي، مرفقة بطرقها المميزة في تعريف الاتصال ومشاكله، والمفردات الخطابية الشاملة، ومجالات الخطاب التي تشترك في الرجوع إليها وتتحداها. كما تقترح من خلال عرض هذه التقاليد حجج تبرير وجودها مع مناقشة تداعيات العمل النظري والممارسة التخصصية في مجال الاتصال.

كلمات مفتاحية: نظرية؛ الاتصال؛ المجال؛ الدراسة

Abstract :

This essay reconstructs communication theory as a dialogical-dialectical field according to two principles: the constitutive model of communication as a metamodel and theory as metadiscursive practice. The essay argues that all communication theories are mutually relevant when addressed to a practical lifeworld in which "communication" is already a richly meaningful term. Each tradition of communication theory derives from and appeals rhetorically to certain commonplace beliefs about communication while challenging other beliefs. The complementarities and tensions among traditions generate a theoretical metadiscourse that intersects with and potentially informs the ongoing practical metadiscourse in society. In a tentative scheme of the field, rhetorical, semiotic, phenomenological, cybernetic, socio- psychological, sociocultural, and critical traditions of communication theory are distinguished by characteristic ways of defining communication and problems of communication, metadiscursive vocabularies, and metadiscursive commonplaces that they appeal to and challenge. Topoi for argumentation across traditions are suggested and implications for theoretical work and disciplinary practice in the field are considered.

Keywords: Theory; Communication; field; Study

مقدمة:

تعتبر نظرية الاتصال غنية جدا من حيث مجموعة الأفكار المنتمية لنطاقها الاسمي ومن حيث عدد الأعمال النظرية حول الاتصال مؤخرا. ومع ذلك، على الرغم من الجذور القديمة والنمو المتزايد

باستمرار للنظريات حول الاتصال، لا زلت أزعّم أن نظرية الاتصال كمجال دراسي قابل للتحديد لم يوجد بعد.

فبدلاً من اعتبار أننا أمام مجال نظري واحد، يبدو أننا نعمل في المقام الأول في مجالات منفصلة. فالكتب والمقالات حول نظرية الاتصال نادراً ما تذكر أعمالاً أخرى عن نظرية الاتصال إلا ضمن تخصصات (بيئية) ومدارس فكرية ضيقة. باستثناء هذه المجموعات الصغيرة، يبدو أن منظري الاتصال لا يتفقون ولا يختلفون حول الكثير من الأمور. فلا يوجد نص حول نظرية عامة يشيرون إليه جميعاً. فليست لديهم أهداف مشتركة توحدهم، ولا خلافات نظرية تفرق بينهم. فهم في الأساس، يتجاهلون بعضهم بعضاً.

يتم تقديم المزيد من المحاضرات الجامعية في مجال الاتصال على جميع المستويات ويتم نشر العديد من الكتب المدرسية. ومع ذلك، فنظرة فاحصة إلى محتوياتها يُظهر فقط أنه، على الرغم من وجود العديد من نظريات للاتصال فلا يوجد توافق على نظرية الاتصال كمجال.

قام أندرسون (Anderson, 1996) بتحليل محتوى سبعة كتب مدرسية حول نظرية الاتصال ووجد أن هناك 249 "نظرية" مختلفة، منها 195 نظرية ظهرت في كتاب واحد فقط من الكتب السبعة. أي أن 22٪ فقط من النظريات ظهرت في أكثر من كتاب واحد من الكتب السبعة، و18 نظرية فقط من أصل 249 نظرية (7٪) أُدرجت في أكثر من ثلاثة كتب. فلو كانت نظرية الاتصال مجالاً دراسياً حقيقياً لكان من المرجح أن يتفق أكثر من نصف الكتب المدرسية التمهيدية على أكثر من 7٪ من محتوياته الأساسية. ويبدو الاستنتاج بأن نظرية الاتصال ليست مجالاً دراسياً متماسكاً بعد، أمراً لا مفر منه.

مع أن نظرية الاتصال ليست مجالاً دراسياً متماسكاً بعد، إلا أنني أعتقد أنها قادرة، بل وينبغي لها، على أن تصبح كذلك. وسينشأ مجالاً دراسياً شريطة أن ننخرط بشكل متزايد، كمنظرين في الاتصال، في المناقشات حول أهداف وقضايا وجدالات مهمة اجتماعياً وتتقاطع مع مختلف التقاليد المتخصصة والتخصصات الوازنة والمنهجيات والمدارس الفكرية التي تفرقنا حالياً.

في هذا المقال، أزعّم أن جميع نظريات الاتصال ذات صلة بالممارسات الشائعة في الحياة اليومية أين أصبح الاتصال بالفعل مصطلحاً غني المعنى. من هذا المنظور، تُعد نظرية الاتصال مجالاً متماسكاً من مجالات الممارسة الشاملة الخطابية (metadiscursive)، وهو مجال للخطاب حول الخطاب والذي له آثار على ممارسة الاتصال. تقدم التقاليد النظرية المختلفة للاتصال طرقاً مختلفة لوضع تصورات ومناقشة مشاكل وممارسات الاتصال. وتأتي هذه الطرق من بعض المعتقدات الشائعة حول الاتصال وتستند عليها كمرجعية مع أشكال معتقدات أخرى. ومن خلال الحوار بين هذه التقاليد، قد تشارك نظرية الاتصال بشكل كامل في الخطاب العملي المستمر (أو الخطاب الشامل) حول الاتصال في المجتمع (Craig, 1989 ; Craig & Tracy, 1995).

وسنعرض في الأقسام التالية من المقال النقاط الآتية:

- 1- لم تبرز نظرية الاتصال بعد كمجال دراسي متماسك، لأن منظري الاتصال لم يجدوا بعد طريقا لتجاوز الممارسات التخصصية المعيقة التي تفصل بينهم.
2. إن تفعيل نظرية الاتصال كمجال دراسي يمكن تحقيقه بشكل أفضل، ولكن ليس من خلال نظرية اتصال موحدة، بل من خلل مصفوفة تخصصية "حوارية-جدلية"، وهي مجموعة من الافتراضات ذات الفهم المشترك (مع كونها عرضة للشك دائما) والتي قد تسمح بمعالجة منتجة من خلال التقاليد المختلفة لنظريات الاتصال.
3. يمكن تطوير مصفوفة تخصصية باستخدام نموذج شامل/ كلي (metamodel) تأسيسي/ تكويني (constitutive) للاتصال والذي يفتح فضاء مفاهيميا يمكن أن تتفاعل بداخله عدة نماذج من الدرجة (المستوى) الأولى وبمشاركة تصور عام لنظرية الاتصال بوصفها خطاب شامل نظري في إنتاج خطاب شامل عملي حول الحياة اليومية.
- 4- بناء على هذه المبادئ، يمكن أن تظهر إعادة بناء مبدئية للتقاليد متعدد التخصصات لنظرية الاتصال في شكل سبع مفردات بديلة لتنظير الاتصال (صياغته نظريا) كممارسة اجتماعية. وفي الخاتمة، أقترح تطبيقات المصفوفة وامتداداتها، فضلا عن الآثار المترتبة على الممارسة المتخصصة في مجال نظرية الاتصال.

1.. جذور عدم التماسك:

إن عدم تماسك نظرية الاتصال كمجال دراسي يمكن تفسيره من خلال الخلفية متعددة التخصصات لنظرية الاتصال وسوء استخدام علماء الاتصال لثمارها الفكرية.

1.1.. أصول متعددة التخصصات:

من أكثر الحقائق إثارة للاهتمام حول نظرية الاتصال أنها ظهرت بشكل مستقل نسبيا في العديد من التخصصات الأكاديمية المختلفة. تتبع "ليتلجون" (Littlejohn, 1982) المساهمات في نظرية الاتصال من تخصصات متنوعة مثل الأدب والرياضيات والهندسة وعلم الاجتماع وعلم النفس. من جهتهما ضمّن "بود وروبين" (Budd & Ruben, 1972) كتابهما 24 مقاربة تخصصية تراوحت في الترتيب الأبجدي، من الأنثروبولوجيا إلى علم الحيوان.

حاول تخصص الاتصال في البداية أن يكون بمثابة مركز تبادل معلومات متعدد التخصصات لجميع هذه المقاربات التخصصية. ولا تزال روح هذه التعددية التخصصية قائمة ونحتاج لتنميتها باعتبارها واحدة من أهم صفاتنا. إلا أن دمج هذا العدد الكبير من المقاربات التخصصية جعل من الصعب جدا تصور نظرية الاتصال كمجال متماسك. فما هي العناصر المشتركة - إن وجدت - بين كل هذه المقاربات؟ لقد تم تطويرها داخل تخصصات مختلفة للتعامل مع مشكلات فكرية مختلفة، وهذه المقاربات كثيرة جدا، تبعا للمعنى الذي أعطاه "كوهن" (Kuhn, 1970) لهذا المصطلح: فهي لا تتفق ولا

تختلف حول أي شيء، بل يتجاهل بعضها بعضا فعليا لأنها تتصور عادة موضوعها المشترك اسميا، الاتصال، بطريقة مختلفة.

استعرض "دانس" (Dance, 1970) 95 تعريفا للاتصال نشرت في عشريني 1950 و1960. وخلص إلى أن التعاريف اختلفت في العديد من الجوانب (ميّز بين 15 "مكونا" مفاهيميا) بحيث قد يكون من الأفضل صياغة الاتصال نظريا (تنظيره) على أنه "عائلة" من المفاهيم ذات الصلة بدلا من مفهوم موحد، من أجل تجنب "الخلاف والنقد الأكاديمي والانقسام النظري" (ص 210). ونظرا لكون "دانس" عمل وفق التقليد الوضعي الذي يعتبر مفهوم النظرية مفهوما مستقرا، فربما قلل من شأن صعوبة دمج التعريفات المستمدة انتقائيا من تخصصات ذات أجندات فكرية عديدة، والتي أصبحت لها الآن في كثير من الأحيان مفاهيم مختلفة جذريا حول "النظرية". ونظرا لكثرة تعريفات الاتصال وصعوبة دمجها أو الاختيار بينها بطريقة مرضية، فقد أصبح من المسلم به بين بعض علماء الاتصال أن الجدل حول تعريفات الاتصال أمر لا طائل منه.

2.1. من الانتقائية العقيمة إلى التجزئة المنتجة:

يرى "بيترز" (Peters, 1986)، أن أبحاث الاتصال أصابها فقر فكري جزئي بسبب الطريقة الخاصة التي تم إضفاء الطابع المؤسسي على التخصص في الجامعات الأمريكية. يقول "بيترز" (ص. 527) إن مصطلح "الاتصال" كان يستخدم من قبل "ويلبر شرام" وآخرون كآلية للشرعية المؤسسية وذلك لمنع أي تعريف متماسك للمجال ولتركيزه الفكري ولمهمته. إن التخصص، بمأسسة نفسه تحت شعار "الاتصال"، ادعى الملكية الأكاديمية لكامل مجال البحث في الاتصال ونظريته. إنها مطالبة قوية جدا في الواقع، فالاتصال سبق وأن تم تدريسه وتنظيره على نطاق واسع. ووفقا لـ "بيترز"، أصبح البحث في الاتصال عبارة عن "تايوان فكري - مدّعا أن يكون هو الصين كلها بينما هو، في الواقع، معزول على جزيرة صغيرة" (ص. 545). وأبرز مثال في هذا الصدد يخص بالتأكيد النظرية الرياضية للمعلومات لـ "شانون" (Shannon & Weaver, 1948)، والتي يعلنها الباحثون في الاتصال كدليل على المكانة العلمية لمجالهم الدراسي على الرغم من أنه ليست لديهم أي علاقة بإنشائها وأنهم غالبا ما يسيئون فهمها ونادرا ما يجدون لها استخداما حقيقيا في أبحاثهم. إن الانتقائية العقيمة للاتصال في هذا الوضع واضحة في فهرسة التقاليد التي لا تزال تظهر في معظم الكتب حول هذا الموضوع. لقد أصبح "مجال" نظرية الاتصال يشبه في بعض جوانبه جهاز لإبادة القوارض، أو فندق تدخله النظريات ولا تخرج منه أبدا. استحوذ علماء الاتصال على كل الأفكار حول الاتصال بغض النظر عن مصدرها، ولكنهم نادرا ما يستفيدون من معظمها، بحيث يمكن القول إنهم دفنوها بعد سلخها من بيئاتها المتخصصة التي تطورت بداخلها وسعت للانتشار فيها. فعلماء الاتصال لم يساهموا شخصا سوى ببعض الأفكار الأصلية.

يشير "بيترز" (Peters, 1986) إلى ظاهرة مماثلة سأفسرها بشكل مختلف قليلا. كان علماء الاتصال يدركون جيدا هذه الظاهرة التي أسميها "الانتقائية العقيمة"، وسعوا لتجاوزها عن طريق تطوير ممنهج لبرامج بحث مؤسسة نظريا. وبما أن أكثر نظرياتهم ونماذجهم البحثية استُعيرت من تخصصات أخرى، فهذا يعني أنهم باشروا برامج بحثية في الاتصال استندت إلى برامج بحثية من تخصصات أخرى. وهكذا، فإن غالبية البحوث في الاتصال السياسي، على سبيل المثال، هي تقريبا عبارة عن "علوم سياسية مطبقة في مجال الاتصال" (Peters, 1986, p. 548). وبالمثل، فإن الكثير من البحوث في الاتصال الشخصي لم تكن - ولا تزال - تقريبا عبارة عن علم نفس اجتماعي تجريبي مطبق في مجال الاتصال.

إن الاستعارات من وبين التخصصات المختلفة هي بالطبع ممارسات مفيدة في حد ذاتها، وينبغي تشجيعها بغية التخفيف من تجزئة المعرفة بين مختلف التخصصات. لكن المشكلة كما اقترح "بيترز" (Peters, 1986)، هي أن هذه الاستعارات استُخدمت لدعم مطالب مؤسسية لإقامة تخصص دون مفصلة مهام أو بؤر متماسكة لهذا التخصص الاتصالي المفترض.

لقد أصبح البحث في الاتصال منتجا عن طريق استيراد أجزاء من عدة تخصصات أخرى إلى ثقافته الخاصة، ولكن هذه الأجزاء، كما تم استخدامها، لم ولن تستطع أن تتشكل في كل متماسك يغذي نفسه بنفسه ويكون أكثر من مجموع أجزائه. وهذا يساعد في تفسير السبب في كون نظرية الاتصال لم تظهر بعد كمجال متماسك. فكل جزء من أبحاث الاتصال كان مثمرا في المجال الخاص به، ولذلك استخدمت مفهوم "تجزئة منتجة". وطالما بقي البحث في الاتصال مجزأً هكذا، فإن الكتب المدرسية ستظل غارقة في توليفها العقيم، وستستمر زيادة عدد نظريات الاتصال، لكن لن يكن هناك مجال لنظرية الاتصال.

2. إعادة بناء نظرية الاتصال كمجال

الهدف: تماسك حوار-جدلي:

في سبيل البحث عن علاج لعدم التماسك، لا ينبغي أن يكون الهدف هو أي نظرية اتصال وهمية موحدة. فأى نظرية موحدة ستكون دائما بعيدة المنال، وربما لا ينبغي علينا الترويج فيها، حتى لو كانت قابلة للتحقيق. فليس هناك مجال نشط من البحث لديه نظرية موحدة تماما. فأى مجال متماسك تماما سيكون ثابتا وميتا، بينما تعتبر ممارسة الاتصال في حد ذاتها عملية حية إلى حد كبير وتتطور باستمرار على مسرح عالم مليء بالطوارئ والصراعات. وهكذا، ففي جميع الاحتمالات، فإن نظرية الاتصال، ونظرية ممارسة الاتصال تحديدا، لن تبلغ أبدا شكلا نهائيا موحدا. في الواقع، ينبغي أن نستهدف الشرط نفسه الذي حرص "دانس" (Dance, 1970) بشدة على تجنبه: تنوع نظري، وجدل ونقاش، حتى على حساب زلات عرضية في النقد الأكاديمي. يجب ألا يكون الهدف حالة لا يكون لدينا فيها ما نتجادل بشأنه، بل حالة نفهم فيها بشكل أفضل أن لدينا جميعا شيئا مهما جدا نتجادل بشأنه.

إذا كان يجب علينا ألا نسعى وراء وهم نظرية موحدة، فلا ينبغي لنا أيضاً أن ننحرف عن مسار البحث متبعين مبرراً مضللاً مثل "معارضة التخصص". فحجج استهداف نظرية منتجة لها احتمالات أكثر لتحدث في مجتمع تأويلي مدعوم بمصفوفة تخصصية، وافتراضات مشتركة. ومع ذلك، فـ"التخصصية" لا تتطلب إلغاء التنوع والتعددية التخصصية. وكحد أدنى، فالتخصص يعني أن الكثيرين منا يتفقون على اختلافهم حول موضوعات مهمة نسبياً والتي هي بالتالي جديرة بالمناقشة. والتخصص بهذا المعنى ليس أكثر ولا أقل من "مجتمع حوارى ذي تقاليد جدلية" (Shotter, 1997). باختصار، ينبغي أن يكون الهدف من التماسك الحوارى-الجدلي: وعي مشترك لبعض التكاملات وبعض التوترات بين أنواع مختلفة من نظرية الاتصال، وذلك حتى يشيع الفهم القائل بأن هذه الأنواع المختلفة من النظرية لا يمكن أن تتطور شرعياً بمعزل عن بعضها بعضاً، بل يجب أن تنخرط في نقاش مشترك. هدفي هنا هو استكشاف كيف يمكن إعادة بناء نظرية الاتصال في شكل تخصص عملي للكشف عن مثل هذه التكاملات والتوترات، وبالتالي تشكيل مجال متماسك. لهذا الغرض، سأقترح مصفوفة نظرية أولية مبنية على مبدئين. ينبع أول هذه المبادئ من النموذج "التأسيسي" للاتصال الذي ظهر في جهود أخرى حديثة لوضع تصور خاص بمجال نظرية الاتصال، ولكنه يُخضع هذا النموذج التأسيسي لعمل فكري يجعله مختلفاً تماماً.

1.2.. المبدأ الأول: النموذج التأسيسي للاتصال بوصفه نموذجاً شاملاً

على الرغم من أن النقاش الأول المتعلق بتعريف الاتصال كاد يتوقف عملياً بعد "دانس" (Dance, 1970)، إلا أن مفهوم الاتصال أصبح مرة أخرى موضوع نقاش جاد بين منظري الاتصال في أواخر 1980. وفي خضم ازدهار عام لنظرية الاتصال، يعكس هذا التركيز المتجدد على مفهوم الاتصال قناعة متنامية لدى بعض الباحثين على الأقل بأن نظرية الاتصال يمكن أن تصبح مجالاً بحثياً متماسكاً وذات أهمية مركزية في الفكر الاجتماعي. فعند تصورنا للاتصال، فإننا نبني، في الواقع، منظوراً "اتصالياً" للواقع الاجتماعي، وبالتالي نقوم بتحديد نطاق وهدف "تخصص اتصالي" مختلف عن التخصصات الاجتماعية الأخرى.

ومن بين أكثر هذه المقترحات المحددة لمجال الاتصال إثارةً للاهتمام، كانت هناك عدة نسخ من نموذج تأسيسي أو طقوسي للاتصال. عادة ما يعرف النموذج المقترح إلى حد كبير بنقيضه الجدلي، أي بنموذج نقلي أو إعلامي، والذي يقال إنه لا يزال يهيمن على الفكر العام وعلى قدر كبير من الفكر الأكاديمي. ووفقاً للمفهوم التقليدي للنقل، فالاتصال هو عملية إرسال واستقبال الرسائل، أو نقل المعلومات من عقل إلى آخر.

في السنوات الأخيرة، تعرض هذا النموذج النقلي إلى انتقادات شديدة. أرجع "بيترز" (Peters, 1989) أصوله إلى أمبريقية القرن الثامن عشر، مع افتراضاتها الفردانية والمتجهة في نهاية المطاف نحو الذات. زعم "كاري، ديتز، بيرس وشيفرد وآخرون" (Carey, 1989; Deetz, 1994; Pearce, 1989 &)

... (Shepherd, 1993) أن نموذج الإرسال معيب فلسفياً، مليء بالمفارقات، ومتخلف أيديولوجياً، وينبغي على الأقل أن يستكمل، أو يستبدل كلياً، بنموذج يتصور الاتصال كعملية تأسيسية تُنتج وتعيد إنتاج معنى مشترك. يقدم هذا النموذج التأسيسي لتخصص الاتصال محورا، ودورا فكريا مركزيا، ورسالة ثقافية (أي نقد المظاهر الثقافية لنموذج النقل).

تتضمن هذه الأدبيات العديد من المواضيع الهامة. أولها أن الأفكار المتعلقة بالاتصال تطورت تاريخياً، وأن فهمها بشكل أفضل يكون في سياق تاريخي وثقافي وفكري أوسع. ثانياً أن نظريات الاتصال انعكاسية: فالنظريات الرسمية غالباً ما تستمد من طرق تفكير تقليدية وثقافية في الاتصال، لكن يمكن لهذه النظريات بمجرد صياغتها، أن تؤثر أيضاً في التفكير والممارسة اليومية، إما بالتغيير أو التعزيز. وبالتالي، فإن العلاقة بين النظرية والثقافة انعكاسية، أو أن تأثيرهما البنائي متبادل. تساعد نظريات الاتصال على خلق الظاهرة نفسها التي تدعي تفسيرها (Carey, 1989 ; Krippendorff, 1997). هذا يقودنا إلى موضوع ثالث، وهو أن نظريات الاتصال، نظراً لتجذرها الثقافي والتاريخي وانعكاسيتها، لها آثار عملية وحتى سياسية. وبما أن النظريات تؤثر في المجتمع، فإنها تخدم دائماً بعض المصالح، وخاصة مصالح الطبقات الأكثر امتيازاً وقوة في المجتمع. على سبيل المثال، فإن نموذج الإرسال قد يخدم مصالح الخبراء الفنيين مثل العلماء أو المهندسين عند استخدامه لتعزيز المعتقدات الثقافية التي تؤكد على قيمة الخبراء كمصادر موثوقة للمعلومات.

الموضوع الرابع هو أن الاتصال يمكن أن يكون تخصصاً فكرياً شريعياً، شريطة تبنيه منظور اتصالي حول الواقع الاجتماعي يختلف جذرياً، ولكنها على الأقل تساويها في المكانة، عن تخصصات تقليدية مثل علم النفس، علم الاجتماع، الاقتصاد، اللسانيات، الخ. فلكل من هذه التخصصات طريقتها الخاصة لشرح جوانب معينة من الاتصال. فالنظريات النفسية، مثلاً، تشرح العمليات المعرفية التي يتمكن بها الأفراد من إنشاء الرسائل (Berger, 1997). ومع ذلك، فإن المنظور الاتصالي يقلب الطاولة تماماً. فالاتصال، من منظور اتصالي، ليس ظاهرة ثانوية يمكن تفسيرها بعوامل نفسية، اجتماعية، ثقافية أو اقتصادية سابقة؛ بل هو العملية الاجتماعية الأساسية والتأسيسية التي تفسر كل العوامل الأخرى. فنظريات الاتصال القادمة من تخصصات أخرى لا تنتمي في الواقع إلى مجال نظرية الاتصال لأنها لا تستند إلى منظور اتصالي. إن أي نظرية اتصال حقيقية تعترف بعواقب الاتصال (Sigman, 1995)، وتعترف بالاتصال نفسه كطريقة أساسية للتفسير (Deetz, 1994).

يشير "ديتز" (Deetz, 1994, p. 568) إلى أن التخصصات الجديدة (باعتبارها طرق تفسيرية أساسية جديدة جذرياً) "تنشأ عندما تفشل الطرق التفسيرية القائمة في توفير توجهات مقنعة لمعالجة مجموعة محورية من القضايا الاجتماعية الجديدة". فالיום، تتعلق القضايا الاجتماعية المحورية بمن يشارك وكيف يشارك في العمليات الاجتماعية التي تبني الهويات الشخصية، والنظام الاجتماعي، وقواعد الاتصال. في مقابل النظرة الإعلامية التقليدية للاتصال التي تتبنى هذه العناصر كمسلمات

وتقترحها كإطار ثابت وضروري لحدوث الاتصال، يؤيد "ديتز" (Deetz, 1994, p. 577) "منظور اتصالي" ناشئ يركز على "وصف كيفية تشكيل العالمين الداخلي والخارجي والعلاقات الاجتماعية ووسائل التعبير بشكل متبادل مع العملية التفاعلية باعتبارها أفضل تفسير لها".

تجدر الإشارة بشكل خاص إلى أن الحجج المقدمة لدعم نموذج تأسيسي للاتصال، كما توضح المقاطع المقتبسة آنفاً من "ديتز" (1994)، غالباً ما لا تكون نظرية بحتة. ويقال إن الوضع الاجتماعي المتغير الذي ينظر فيه إلى الاتصال يتطلب طرقاً جديدة للتفكير فيه. وهكذا يقدم النموذج التأسيسي كحل عملي للمشاكل الاجتماعية المعاصرة مثل تلك التي تنتج عن تآكل الأسس الثقافية للمؤسسات والأفكار التقليدية، مفضياً بذلك إلى زيادة التنوع الثقافي والترابط وكذلك ارتفاع الطلب ومن كل مكان على المشاركة الديمقراطية في بناء الواقع الاجتماعي. وكما يمكن استخدام نموذج النقل لدعم سلطة الخبراء الفنيين، فمن المأمول أن يخدم النموذج التأسيسي قضايا الحرية والتسامح والديمقراطية.

على الرغم من أنني أوافق بشدة على هذه الحجج المؤيدة لنموذج تأسيسي للاتصال، لكنني أفضل تفسيراً براغماتياً لا يرفض بالضرورة النماذج الأخرى، مثل نموذج النقل، لأغراض عملية. وهذا يعني أنني أعتبر النموذج التأسيسي نموذجاً شاملاً يفتح مجالاً تصورياً يمكن أن تتفاعل بداخله نماذج نظرية مختلفة. منطقياً، يمثل نموذج الاتصال من الدرجة الأولى منظوراً للاتصال يسلط الضوء على جوانب محددة من العملية. على سبيل المثال، يصور نموذج النقل الاتصال كعملية تتدفق فيها الرسائل من المصادر إلى المستقبلين. أما نموذج الاتصال من الدرجة الثانية، أو النموذج الشامل، فهو منظور للنماذج يسلط الضوء على جوانب معينة منها. يصور النموذج الشامل التأسيسي للاتصال نماذج الاتصال كطرق مختلفة لتشكيل عمليات الاتصال رمزياً لأغراض معينة. أعتقد أن الفشل في التمييز منطقياً بين نماذج الاتصال من الدرجة الأولى والنموذج التأسيسي هو خطأ تصنيفي يُنتج نوعين على الأقل من الالتباس.

تكمن المفارقة الأولى في التعارض الجدلي بين النموذج التأسيسي ونموذج النقل. بما أن النموذج التأسيسي ينفي عموماً أن يكون لأي مفهوم جوهر حقيقي إلا ما هو مشكّل ضمن عملية الاتصال، فإن القول بأن النموذج التأسيسي هو النموذج "الحقيقي" للاتصال سيبدو متناقضاً في ذاته. على الرغم من الانطباع الذي قد ينشأ من قراءة سطحية للأدبيات، فتعريف الاتصال ليس خياراً ثنائياً بين نموذجين متنافسين -نقل مقابل تأسيس-، وهو في الواقع ليس خياراً على الإطلاق، لأن نموذج النقل، كما يقدم عادة، هو مجرد رسم تخطيطي مصمم لتمثيل رؤية تبسيطية. إن نموذج النقل، الذي يعتبر إحدى طرق تشكيل الاتصال رمزياً لأغراض عملية، يتوافق تماماً مع النموذج التأسيسي. أي أن النموذج التأسيسي لا يقول لنا ما هو الاتصال حقاً، بل يشير إلى أن الاتصال يمكن أن يشكّل رمزياً (في الاتصال ومن خلاله، طبعاً) بطرق مختلفة، بما في ذلك كعملية نقل (لما لا، إذا كان ذلك مفيداً لبعض الأغراض؟). ولا تزال مفاهيم الاتصال الشبيهة بـ"النقل" (transmission)، مهما كانت

عيوبها الفلسفية، تحمل قيمة ثقافية. كما، قد نجد، أن التفكير النقدي يمكن أن يؤدي إلى الاستنتاج بأن هناك في كثير من الأحيان سببا وجها لاستخدام نموذج النقل: قد يكون من المفيد التمييز عمليا بين مرسلي الاتصال ومستقبله، وكذا رسم خريطة تدفق المعلومات من خلال بعض النظم أو التفكير في الرسائل كحاويات للمعاني أو في الاتصال كفعل مقصود ينفذ لتحقيق نتيجة متوقعة. حيث يمكن، على سبيل المثال، الدفاع عن نماذج النقل على أساس أنها تسمح بتطوير نوع خاص من اليقظة تجاه تنوع ونسبية وجهات النظر ومخاطر التشويه وسوء الفهم المستمرة في الاتصال.

ثانيا، وبشكل عام، فإن النموذج التأسيسي، ما لم يكن مميزا بوضوح كنموذج شامل، قد يميل إلى خلط الاتصال نفسه مع الاتصال كما تم تصويره في بعض التقاليد المحدودة، وبالتالي، ومن خلال استبعاد تقاليد أخرى مفيدة، يقيّد بشكل غير مبرر مجال نظرية الاتصال. ربما يكون من الأسهل الخلط بين النموذج التأسيسي والتقليد الاجتماعي-الثقافي لنظرية الاتصال، الذي يتصور الاتصال كعملية تنتج وتعيد إنتاج -أي تبني- النظام الاجتماعي، مما قد يؤدي إلى انطباع خاطئ بأن تقاليد أخرى لنظرية الاتصال، مثل التقاليد السيبرنتيكية والنفسية الاجتماعية، ليست نظريات اتصال حقيقية لأنها لا تبني منظور اتصالي للواقع الاجتماعي. على العكس من ذلك، كما سأوضح، يمكن إعادة بناء هذه التقاليد الأخرى وفقا للنموذج الشامل التأسيسي كأنواع بديلة من تفسيرات الاتصال.

إن مجرد كون الاتصال قابلا للتنظير بطرق متعددة ضمن نموذج شامل تأسيسي لا يبرر فعل ذلك، ولا توقع أن ينتج عن التكاثر الهائل للنظريات مجال نظري متماسك، بل قد يعيدنا إلى نفس المأزق القديم من الانتقائية العقيمة أو، في أحسن الأحوال، إلى التشرذم المثمر. سأبرهن على أن نظرية الاتصال رغم انفتاحها على التنوع يمكن أن تكون مجالا متماسكا ومفيدا، إذا فهمناها كخطاب شامل، أي خطاب حول الخطاب وفي سياق تخصص عملي، بغية بناء مصفوفة تخصصية حوارية-جدلية.

2.2.. المبدأ الثاني: نظرية الاتصال كخطاب شامل

أثارت قراءتي لتايلور (Taylor, 1992) فكرة رئيسة أدت إلى هذه المقالة حول نظرية الاتصال كمجال. في نقده لنظرية اللغة، من "لوك" حتى الآن، اعتبر "تايلور" (1992, p. 10) "الممارسة الفنية لتنظير اللغة، التأويل، الاتصال، الفهم ... مستمدة من ... ممارساتنا اليومية العادية المتعلقة بالحديث عما نقوله بلغتنا وما نفعله بها". يدّعي تايلور أن نظرية اللسانيات الرسمية قد تم اشتقاقها من تحويل المفاهيم الشائعة للخطاب الشامل العملي -مثل الاعتقاد الشائع بأن الناس عادة ما يفهمون عبارات بعضهم بعضا- إلى مسلمات نظرية أو فرضيات تجريبية. مع تشكيك كل نظرية لغوية في المفاهيم الخطابية الشاملة التي تعتبرها النظريات الأخرى أمرا مسلما به، تصبح "نظرية اللغة ككل" خطايا فكريا شاملا مهيكلا كلعبة مغلقة ذات مرجعية ذاتية. يقترح تايلور (1992) أن السبيل الوحيد للخروج من هذه اللعبة البلاغية للخطاب الفكري الشامل هو تنحية المشكل الزائف الذي تقوم عليه جانبا

-والمتمثل في شرح كيف يمكن أن يكون الاتصال ممكنا- والتوجه بدلا من ذلك نحو الدراسة الأمبريقية للخطاب الشامل العملي- أي كيف يتم تحقيق الاتصال بشكل انعكاسي في الممارسة.

إن الخطاب الشامل العملي هو جوهرى بالنسبة للممارسة الاتصالية. وبعبارة أخرى، فإن الاتصال ليس مجرد شيء نقوم به، ولكنه أيضا شيء مرجعي نعود إليه ونتفاعل معه انعكاسيا بطرق متشابكة مع ممارساتنا.

أثار تفكيك تايلور لنظرية اللغة فكرة مفادها أن نظرية الاتصال، وليس فقط نظرية اللغة، هي نوع من الخطاب الشامل، أي طريقة للحديث عن الحديث، والتي تستمد الكثير من مصداقيتها وأهميتها من الاستخدام البلاغي للخطاب الشامل الشائع في ممارسات الحياة اليومية.

لذا، فإن افتراضي العملي، على حد تعبير تايلور، هو أن الممارسة التقنية لنظرية الاتصال مستمدة إلى حد كبير من ممارساتنا اليومية العادية في التحدث عن الاتصال، وتحليلي للمجال الأوسع والأكثر تنوعا لنظرية الاتصال يتبع تحليل تايلور لنظرية اللغة الأضيق والأكثر تنظيما في بعض النواحي. ومع ذلك، هناك فرق مهم: فبينما يصور تايلور نظرية اللغة كلعبة مغلقة وذاتية المرجعية، ومنفصلة تماما عن الوظائف البراغماتية التي تحرك الخطاب الشامل العملي، أتصور نظرية الاتصال كمجال مفتوح للخطاب يتعامل مع مشاكل الاتصال كممارسة اجتماعية، وهو خطاب شامل نظري ينشأ من الخطاب الشامل العملي الذي يُعتبر امتدادا له ومغذيا له معلوماتيا في وقت واحد.

يشمل هذا التصور للخطاب الشامل النظري الآثار والالتزامات الناشئة من نموذج شامل تأسيسي للاتصال. وهو يعترف بانعكاسية نظرية الاتصال وما يترتب على ذلك من التزامنا، كمنظرين للاتصال بمواءمة عملنا النظري مع الوضع الثقافي الذي أدى إلى نشأة تخصصنا. بعبارة أخرى، يعترف بإمكانية أن تُسهم نظرية الاتصال في تنمية الاتصال كممارسة اجتماعية، وبالتالي في تطوير الاتصال كتخصص عملي، والذي تُصمّم فيه النظرية لتوفير الأدوات المفاهيمية للتفكير في مشاكل الاتصال. ويتم ذلك من خلال تنظير (إعادة بناء مفاهيمي) ممارسات اتصالية ضمن تصورات اتصالية مثالية معيارية، مجردة نسبيا، ومبررة بوضوح. ويمكن، بالطبع، تنظير الاتصال من وجهات نظر مختلفة تناقش المزايا النسبية للنظريات التطبيقية البديلة، تحت ما يمكن تسميته "خطابا شاملا نظريا".

إن للاتصال القدرة على أن يكون تخصصا تطبيقيا في المقام الأول لأن "الاتصال" هو بالفعل مفهوم غني بالمعاني في عالمنا المعيش. فإذا كانت ثقافتنا تميل إلى الاعتقاد بأن كل المشاكل هي في الأساس مشاكل اتصال (McKeon, 1957)، وتجعلنا عادة بحاجة إلى "الجلوس والتحدث" لـ "حل مشاكلنا" العلائقية (Katriel & Philipsen, 1981)، حيث نؤكد "طقوسيا" أن الاتصال هو السند الوحيد الذي يمكنه المحافظة على تماسك مجتمع متنوع بسبب الفجوة الفاصلة بيننا مكانيا وثقافيا (Carey, 1989)، فإن الاتصال هو بالفعل موضوع مناقشة على نطاق واسع في المجتمع، والجميع يعلم بالفعل أن الاتصال مهم ويستحق الدراسة من أجل تحسينه. ولذلك، يمكن بناء نظرية الاتصال استقرائيا من

خلال دراسة نقدية للممارسات اليومية، وجزئيا عن طريق النسخ وإعادة البناء النظري لـ"مثل العليا الموضوعية" التي يعبر عنها الناس أنفسهم في خطابهم الشامل اليومي. إن هذه الطريقة الاستقرائية-النقدية لبناء نظرية الاتصال تم اسكتشافها في أعمال سابقة حول "النظرية التطبيقية المتجذرة". للاتصال أيضا القدرة على أن يكون تخصصا تطبيقيا جزئيا، لكونه بالفعل فئة نظرية مهمة ضمن مجموعة واسعة من التخصصات الراسخة، التي يمكننا من خلالها الحصول على مجموعة غنية من الموارد المفاهيمية للتفكير في ممارسة الاتصال. فهي تقدم مفردات بديلة متميزة يمكن إعادة صياغتها نقديا كطرق بديلة لتصور مشكلات الاتصال وممارساته. إذن، يمكن بناء نظرية الاتصال استنباطيا، انطلاقا من النظرية، وكذلك استقرائيا انطلاقا من التطبيق. في هذه المقالة، سنستكشف هذه الطريقة النقدية الاستنتاجية لبناء نظرية الاتصال.

وعلى الرغم من تطوير أفكار نظرية حول الاتصال في عدة تخصصات ذات أجندات فكرية كثيرة، إلا أنه من المنطقي افتراض أن كل فكرة من هذه الأفكار قد تكون ذات صلة بالممارسة. أحد الأسباب المثيرة للاهتمام لافتراض ذلك هو أن الاتصال ربما تم تنظيره في جميع هذه التخصصات خلال القرن العشرين، لأنه أصبح فئة مهمة ثقافيا من الممارسات الاجتماعية. يتوافق هذا الافتراض مع الانعكاسية، أو التأثير المتبادل، بين نظرية الاتصال والممارسة الثقافية، كما اقترح ذلك "كاري وديتز" (Carey, 1989 ; Deetz, 1994) وكتاب آخرون. من منظور بلاغي، تتمثل إحدى الطرق التي يمكن بها لتخصص أكاديمي أن يكتسب الشرعية ثقافيا هي إثبات أهميته الاجتماعية من خلال إظهار أن لديه شيئا مثيرا للاهتمام ليقوله عن مواضيع ثقافية بارزة ومشكلات عملية، مثل، الاتصال، في ثقافتنا.

إذا صح أن انتشار التنظير في مجال الاتصال في عدة تخصصات أكاديمية مختلفة، قد نشأ جزئيا نتيجة رغبة في أهميته العملية، فإن التراث متعدد التخصصات لنظرية الاتصال هو جاهز، إلى حد ما، ليكون تخصصا عمليا. وهدفي في بقية هذه المقالة هو إظهار كيف أن الأهمية العملية المحتملة لأي نظرية اتصال، مهما كان مصدرها التخصصي، يمكن استخدامها لبناء مجال، أرضية اتفاق أو فضاء خطابي -شامل- مشترك، تتفاعل فيه كل نظريات الاتصال بعضها مع بعض بطريقة منتجة، ومن خلال وسيط خطابي عملي شامل، مع ممارسة الاتصال.

إن طريقي في إعادة بناء تقاليد نظرية الاتصال لإبراز أهميتها العملية تتبع نسبيا طريقة تايلور (1992). أفترض أن الخطاب الشامل النظري (أي، نظرية الاتصال) ينحدر من الخطاب الشامل العملي (طرق الحديث اليومية عن الاتصال) ويُنظَره، وبهذا فكلاهما (أ) يلجأ بلاغيا إلى بعض الخطابات الشاملة الشائعة، وهو ما يجعل النظرية تبدو معقولة وبديهية من وجهة نظر غير متخصصة، و(ب) يتحدى بشكل متشكك مسلمات أخرى حول الخطاب الشامل، مما يجعل النظرية تبدو مثيرة للاهتمام، متبصرة، أو ربما غير منطقية بشكل سخي من منظور غير المتخصص. إن هذا الجمع بين المعقولة والإثارة للاهتمام يشكل الأهمية العملية المفترضة لنظرية معينة. ولأن النظريات المختلفة

تبدو مهمة بطرق مختلفة بشكل كبير وغالبا ما تتعارض، فإن الخطاب الشامل النظري يراجع نفسه لمناقشة الاختلافات وبالتالي يؤسس لنفسه كمجال حوار- جدلي. لذلك، مهمتنا الحالية هي بدء هذه العملية الإنعكاسية في مجال نظرية الاتصال.

3.. رسم تخطيطي لمجال الاتصال: سبعة تقاليد

حتى الآن، زعمت أن نظرية الاتصال ليست بعدُ مجالا متماسكا، ولكن لديها القدرة على أن تصبح مجالا حواريا-جدليا قائما على مبدئين: (أ) نموذج شامل تأسيسي للاتصال، وب) تصور لنظرية اتصال كممارسة خطابية شاملة داخل تخصص تطبيقي/ عملي. لرؤية إلى أين يمكن أن تأخذنا هذه المقاربة، سأقوم برسم سبعة تقاليد لنظرية الاتصال أُعيد بناؤها، مرتبة في مصفوفة تبرز التكاملات والتوترات ذات الأهمية العملية بينها.

جدول 1

سبع تقاليد اتصالية

نقدي	اجتماعي- ثقافي	نفسى- اجتماعي	سيرنيتيكي	ظاهراتي	سيمبائي	بلاغي	تنظير الاتصال ك:
تفكير خطابي	إعادة إنتاج للنظام الاجتماعي	تعبير، تفاعل وتأثير	معالجة للمعلومات	تجربة الآخر، حوار	وساطة ذاتية مشتركة بالعلامات	فن تطبيقي للخطاب	تنظير الاتصال ك:
أيديولوجيا مهيمنة، تشويه ممنهج للاتصال	صراع، اغتراب، سوء فهم، عدم تنسيق	موقف يتطلب التلاعب بأسباب السلوك لتحقيق نتائج محددة	ضوضاء، تحميل زائد أو ناقص، عطل أو "خلل" في نظام ما	غياب علاقات إنسانية حقيقية أو فشل في الحفاظ عليها	سوء تفاهم أو فجوة بين وجهات نظر ذاتية.	متطلبات اجتماعية تتطلب التداول والحكم الجماعي.	تنظير مشكلات الاتصال ك:
أيديولوجيا، جدل، رفع الوعي، قمع، مقاومة، تطور	مجتمع، بنية، تطبيق، طقوس، قاعدة، تنشئة، ثقافة، هوية، بناء	سلوك، متغير، أثر، شخصية، عاطفة، إدراك، معرفة، اتجاه، تفاعل	مصدر، مستقبل، علامة، معلومة، ضوضاء، أثر رجعي، تكرار، شبكة، وظيفة	تجربة، الأنا والآخر، حوار، أصالة، دعم، انفتاح.	علامة، رمز، أيقونة، مؤشر، معنى، مرجع، كود، لغة، وسط، (سوء) فهم.	فن، منهج، مرسل، جمهور، استراتيجية، شائع، منطق، عاطفة	مفردات خطابية شاملة مثل:
الديمومة الذاتية للسلطة والثروة: قيم الحرية، المساواة	الفرد نتاج المجتمع، لكل مجتمع ثقافته الخاصة، للأفعال الاجتماعية آثار	يعكس الاتصال الشخصية؛ تؤثر المعتقدات والمشاريع على الأحكام: تأثير متبادل بين	هوية العقل والداغ، قيمة المعلومة والمنطق، يمكن أن تكون الأنظمة	الكل بحاجة إلى تواصل بشري، يجب معاملة الآخرين كأشخاص، احترام	يتطلب الفهم لغة مشتركة، حضور دائم لخطر الاتصال	قوة الكلمات، قيمة حكم مستنير، قابلية تحسين	تقليد معقول عندما يستخدم خطابا شاملا شائعا مثل:

الممارسة	الخاطئ	الاختلافات، البحث عن قواسم مشتركة	المعقدة غير متوقعة	الأشخاص في المجموعات	غير مقصودة	والعقل؛ الحوار ينتج الوعي، الاستفاقة
تقليد مهم عندما يتحدى مسلمات خطاب شامل مثل:	الكلمات وحدها ليست أفعالا، المظهر ليس هو الواقع، الأسلوب ليس جوهرًا، الرأي ليس هو الحقيقة	لل كلمات معاني صحيحة وتعبر عن أفكار، الأكواد ووسائل الإعلام هي قنوات محايدة	الاتصال مهارة، الكلمة ليست هي الشيء، الوقائع موضوعية والقيم ذاتية	يختلف البشر عن الآلات، العاطفة ليست منطقية، ترتيب خطي للسبب والنتيجة	البشر كائنات عقلانية؛ كل واحد يعرف روحه ويعرف ما يرى	الفعل والمسؤولية الفردية؛ الطابع المطلق لل الهوية الفردية، الطابع الطبيعي للنظام الاجتماعي. والعلم والتكنولوجيا.

جدول 2

حجج الجدل بين التقاليد

نقدي	اجتماعي-ثقافي	نفسي- اجتماعي	سيبرنتيكي	ظاهراتي	سيمائي	بلاغي	
تدعي	تخضع نظرية البلاغة إلى الثقافة وتولي أهمية مبالغ فيها للأفعال الفردية على حساب البناء الاجتماعي.	تفتقد البلاغة إلى أدلة أمبريقية نوعية تؤكد أن تقنياتها الإقناعية تعمل فعلا.	التدخل في أنظمة معقدة ينطوي على مشاكل فنية تعجز البلاغة عن فهمها	الاتصال الاستراتيجي بطبيعته غير أصيل وغالبا ما تكون نتائجه عكسية	لا نستعمل العلامات، بل العلامات هي التي تستعملنا	لا يتم تعلم فن البلاغة إلا من خلال الممارسة، النظرية تشتت الانتباه فقط	ضد البلاغة
المعنى لا تحدده القواعد بل فهو محل الصراع الاجتماعي	أنظمة العلامات ليست مستقلة فهي توجد فقط في الممارسات المشتركة للمجموعات الواقعية	تفشل السيمائية في تفسير العوامل المؤثرة في إنتاج تأويل الرسائل	يتكون "المعنى" من علاقات وظيفية داخل أنظمة معلومات ديناميكية	اللغة والخطاب، والدال والمدلول تميزات زائفة. اللغة تشكل العالم	اللغة خيال، والمعنى والذاتية- المشتركة غير محددتين	جميع استخدامات العلامات بلاغية	ضد السيمائية
يتكون الوعي الفردى اجتماعيا وبالتالي فهو متحيز إيديولوجيا	إن العمليات الاجتماعية التي تنتج الذاتية المشتركة لا تستطيع الظاهراتية تفسيرها	إن التحليل الظاهراتي يفترض بشكل خاطئ الوعي الذاتى بالعمليات المعرفية	"التجربة" الظاهراتية هي معالجة المعلومات المنتجة داخل الدماغ	تجربة الآخر ليست تجربة مباشرة، بل تعتبر فقط كمكون في وعي الأنا	الأنا والآخر هما فردان محددان سيمائيا ولا يوجدان إلا كعلامات أو بداخلها	الأصالة خرافة خطيرة. يجب أن يكون الاتصال الجيد فنيا، وبالتالي استراتيجيا	ضد الظاهراتية

ضد السيرنيتيكا	العقل العملي لا يمكن (أو لا يجب) حصره في حسابات شكلية	تتجاهل التفسيرات الوظيفية دقة أنظمة العلامات	تفشل الوظيفية في تفسير المعنى كتجربة واعية متجسدة	يجب أن يكون الملاحظ مدرجا في النظام، مما يجعله غير محدد	عقلانية السيرنيتيكية مبالغ فيها، فهي مثلا تقلل من دور العواطف	لا تستطيع النماذج السيرنيتيكية تفسير المعنى الصادر عن التفاعلات الاج.	تعكس السيرنيتيكا هيمنة العقل الذرائعي
ضد علم النفس الاجتماعي	التأثيرات موقفية ولا يمكن توقعها بدقة	"التأثيرات" الاجتماعية النفسية هي خصائص داخلية لأنظمة العلامات	يجب تجاوز ثنائية الشخص/ الموضوع في علم النفس الاجتماعي	يتضمن الاتصال سببية دائرية وليس خطية	للنظريات النفسية الاج. قدرة تنبئية محدودة، حتى في المخابر	ترتبط "القواعد" النفسية الاج. بالثقافة وهي متحيزة لفردانيتهما	يعكس علم النفس الاجتماعي أيديولوجيات الفردانية والذرائعية
ضد النظرية الاجتماعية - الثقافية	القواعد الاجتماعية الثقافية، الخ. هي سياقات وموارد للخطاب البلاغي	القواعد الاجتماعية الثقافية كلها أنظمة علامات	للحياة الاجتماعية أساس ظاهراتي	يمكن نمذجة التنظيم الوظيفي لأي نظام اجتماعي بشكل رسمي	النظرية الاج. الثق. غامضة وغير قابلة للاختبار، وتتجاهل العمليات النفسية التي تكمن وراء أي نظام اج.	النظام الاجتماعي الثقافي خاص وبعالم محليا لكن النظرية يجب أن تكون مجردة وعامة	تفضل النظرية الاجتماعية الثقافية الوفاق على الصراع والتغير
ضد النظرية النقدية	يستند العقل العملي إلى حالات خاصة وليس إلى مبادئ عالمية	لا يوجد شيء خارج النص	النقد متضمن في أي تعامل حقيقي مع التقاليد	نماذج النظم ذاتية التنظيم تأخذ في الاعتبار الصراع الاج. والتغيير	تخلط النظرية النقدية بين الوقائع والقيم وتفرض أيديولوجيا دوغمائية	تفرض النظرية النقدية إطارا تفسيريا ولا تأخذ بعين الاعتبار المعاني المحلية	النظرية النقدية نخوية وليس لها تأثير حقيقي على التغير الاجتماعي

يلخص الجدولان 1 و2 وجهات النظر التقليدية السبع التي سيتم مناقشتها في الصفحات التالية. في الجدول الأول، يتم تشخيص كل تقليد نظري من خلال تعريفه المميز للاتصال وتعريفه المرتبط بمشاكل الاتصال، والمفردات الخطابية الشاملة، ومسلمات الخطاب الشامل التي تجعل التقليد معقولا، ومن خلال مسلمات الخطاب الشامل التي يشكك فيها التقليد أو يعيد تأويلها بطريقة مثيرة للاهتمام.

يستمر الجدول 2 في التحليل باقتراح موضوعات للمحاجة بين التقاليد. والغرض منه هو الإشارة إلى الاعتراضات النقدية المميزة التي قد يثيرها كل تقليد ضد التقاليد الأخرى.

سيتم مناقشة التقاليد بإيجاز مع توضيح كل منها والإشارة إلى إمكانية المزج بين بعضها. وعلى الرغم من أنني حاولت أن أكون شاملاً في اختيار التقاليد وتعريفها، فقد اتخذت قرارات تعكس بلا شك تحيزاتي وقيودي الفكرية. وأدعو غيري من الخبراء لتسليط الضوء عليها.

تتطابق العديد من هذه التقاليد مع فصول معينة من الكتاب المدرسي المؤثر لـ"ليتلجون (Littlejohn, 1996b)، أما هيكلتها فتختلف جذرياً عن الطرق التقليدية لتصنيف نظريات الاتصال: وفقاً للأصل التخصصي (علم النفس، علم الاجتماع، البلاغة...)، مستوى التنظيم (شخصية، تنظيمية، جماهيرية...)، نوعية التفسير (السمات، المعرفية، النظام النظري)، أو الاستمولوجيا الأساسية (التجريبية، التفسيرية، النقدية...)، حيث يقترح المخطط تصنيفها تبعاً للتصورات الكامنة وراء ممارسات الاتصال. إن أحد تأثيرات هذا التغيير في المنظور هو أن نظريات الاتصال لم تعد تتجاوز بعضها بعضاً في براديجماتها ومستوياتها المختلفة. أصبحت نظريات الاتصال الآن فجأة لديها شيء للتوافق أو الاختلاف حوله، وهذا "الشيء" هو الاتصال، وليس الاستمولوجيا.

1.3. التقليد البلاغي: الاتصال بوصفه الفن العملي للخطاب

في تقليد النظرية البلاغية الذي نشأ مع السفسطائيين اليونانيين القدماء، ويمتد عبر تاريخ طويل ومتنوع حتى الوقت الحاضر، غالباً ما تم تنظير الاتصال كفن عملي في الخطاب. وهي طريقة مفيدة لتوضيح أهمية مشاركتنا في الخطاب، وتؤكد أيضاً إمكانية تنمية ممارسة الاتصال وتحسينها من خلال اعتبار مشاكل الاتصال ضرورات اجتماعية يمكن حلها لإقناع الجماهير (Bitzer, 1968).

يبدو أن النظرية البلاغية معقولة ومفيدة لأنها تستند إلى بعض المعتقدات الشائعة حول الاتصال وقوته البلاغية المؤثرة في المجتمع. مع الإشارة إلى أن البلاغة قد تكون مفيدة كما قد تمارس بشكل سيء فتكون ضارة. لهذا من المهم أن نفهم كيفية عمل البلاغة وتطوير مهارتنا كمستهلكين نقديين وكمنتجين فعالين للبلاغة. وبما أننا نعلم أن المتحدثين يختلفون في الحكمة والمهارة، وأن المهارة، إن لم تكن الحكمة، يمكن غالباً تحسينها من خلال التعليم والممارسة، فمن المعقول أن نفكر أن الأشخاص يمكنهم أن يصبحوا متحدثين أفضل من خلال تعلم وممارسة طرق الاتصال التي يمكن اختراعها أو اكتشافها من خلال البحث والتعليم الممنهج. لذلك، يصبح من الواضح أنه يمكن تنظير جميع أشكال الاتصال باعتبارها فناً عملياً وتدريبها تقريباً بنفس الطريقة التي جرت بها العادة على تدريس البلاغة. لهذا السبب أصبح من المنطقي التفكير في الاتصال باعتباره تخصصاً عملياً.

ومع ذلك، إذا كان يبدو أن التقليد البلاغي مقنعاً ومفيداً لأنه يستند إلى عدة معتقدات شائعة حول الاتصال، فإنه أيضاً مثير للاهتمام لأنه يتحدى معتقدات شائعة أخرى، ويكشف بعضاً من أعمق التناقضات في الاتصال. فهو يتحدى الأفكار الشائعة التي مفادها أن الكلمات وحدها هي أقل أهمية من الأفعال، وأن المعرفة الحقيقية تتجاوز مجرد كونها مسألة رأي، وأن قول الحقيقة الواضحة شيء مختلف عن التكيف الاستراتيجي للرسالة لتناسب الجمهور. منذ أكثر من ألفي عام، اختلف

منظرو البلاغة حول الدور النسبي للعاطفة والمنطق في الإقناع، سواء كانت البلاغة جيدة أو سيئة أو محايدة بطبيعتها، وسواء كان لها موضوعها الخاص، وما إذا كان للنظرية دور مفيد في تحسين الممارسة. هذه أسئلة مثيرة للاهتمام، أولاً لأنها مثيرة للغاية فكرياً، وثانياً، لأنها قد تكون مرتبطة بمشكلات حقيقية نواجهها في حياتنا اليومية. فعلى سبيل المثال، يتعين علينا أن نفكر حقا حول كيفية استجابتنا للنداءات العاطفية التي تغزو الإعلانات السياسية والتجارية، وفي هذا الصدد، تقدم النظرية البلاغية مفردات مفيدة لوضع تصورات لهذه التجربة المشتركة ومناقشتها.

2.3.. التقليد السيميائي: الاتصال كوساطة ذاتية مشتركة من خلال العلامات

على غرار البلاغة، للسيميائية جذور قديمة (Manetti, 1993)، ولكنها كتقليد متميز في نظرية الاتصال، ترجع أصولها لنظرية اللغة لـ"جون لوك" (الكتاب III المهمل كثيرا: Locke, 1690/1979). يمتد هذا التقليد عبر "بيرس وسوسير" (Peirce & Saussure)، اللذين أنشأ من خلال أعمال مهمة تخصصين مختلفين تماما عن السيميائية، ويستمران حتى النظريات الحالية للغة، والخطاب، والتأويل، والاتصال غير اللفظي، والثقافة ووسائل الإعلام. في التقليد السيميائي، تتمثل عملية تنظيم الاتصال عادة في التوسط بين الذاتيات بواسطة العلامات. إن تنظيم الاتصال بهذه الطريقة، يجعله يفسر استخدام اللغة وأنظمة العلامات الأخرى باعتبارها وسائط بين وجهات نظر مختلفة. تعتبر مشاكل الاتصال في التقليد السيميائي بشكل أساسي مشاكل (إعادة) عرض ونقل المعنى وفجوات بين الذاتيات يمكن أن تُجسّر، ولو بشكل غير كامل، من خلال استخدام أنظمة مشتركة للعلامات.

يؤكد "لوك" (Locke, 1690/1979) بأنه لا يمكننا أن نسلم مسبقا بأن الناس عادة ما يفهمون بعضهم بعضا. يشير "تايلور" (Taylor 1992)، كما ذكرت سابقا، إلى كيف يمكن اعتبار جميع نظريات اللغة -منذ "لوك"- كسلسلة من الردود على حجة لوك المشككة في الاعتقاد الشائع الخاص بالفهم الذاتي المشترك بين الأفراد. تؤكد النظرية السيميائية الآن بوجه عام أن العلامات تبني مستخدميها (أو "مواقعهم الذاتية")، وأن المعاني عامة وغير محددة في نهاية المطاف، وأن الفهم هو إيماء عملية بدلا من كونها حالة نفسية مشتركة، وأن الرموز ووسائل الاتصال ليست مجرد هياكل أو قنوات محايدة لنقل المعاني، بل لها خصائص رمزية خاصة بها؛ "فالرمز يشكل المحتوى والوسيلة نفسها تصبح رسالة، بل الرسالة نفسها" (McLuhan, 1964).

تبدو نظرية الاتصال السيميائي معقولة وعملية عندما تستند إلى المعتقدات الشائعة بأن الاتصال يكون أسهل عندما نتقاسم لغة مشتركة، وأن الكلمات يمكن أن تعني أشياء مختلفة لأشخاص مختلفين، لذا فإن سوء الفهم خطر دائم، وأن المعاني غالبا ما تُنقل بشكل غير مباشر أو من خلال جوانب سلوكية دقيقة قد تظل غير مرئية، ويكون التعبير عن بعض الأفكار أسهل من خلال بعض الوسائل (صورة تساوي ألف كلمة، لا ينبغي استخدام البريد الإلكتروني في المفاوضات التجارية الحساسة). من ناحية أخرى، يمكن للسيميائية أن تكون مثيرة للاهتمام، ومهمة أو حتى غير معقولة

بشكل مثير للدهشة بالنسبة لعامة الناس عندما تتحدى معتقدات شائعة أخرى مثل كون الأفكار موجودة في أذهان الناس، وأن الكلمات لها معان صحيحة، وأن المعاني يمكن أن تكون محددة بوضوح، وأن الاتصال هو فعل إرادي، وأننا نستخدم العلامات ووسائل الاتصال كأدوات لتمثيل أفكارنا ومشاركتها الآخرين.

باعتبارهما تقليديين متميزين في مجال نظرية الاتصال، فإن البلاغة والسيمائية ترتبطان في بعض النواحي ارتباطا وثيقا، إذ قد نجد هجين من هذين التقليديين. يمكن اعتبار البلاغة فرعاً من السيمائية يدرس بنى اللغة والمحاكاة التي تتوسط العلاقة بين الجماهير والمرسلين. كما يمكن اعتبار السيمائية نظرية خاصة في البلاغة تدرس الموارد المتاحة لنقل المعاني في الرسائل البلاغية.

ولكن للسيمائية والبلاغة اختلافاتهما الحادة أيضاً مع تداعيات عملية مهمة. يشير "بيترز" (Peters, 1989, p. 394) إلى أن "لوك" فهم الاتصال ليس كنوع من الكلام أو البلاغة أو الخطاب، بل كبديل لها جميعاً. في الفكر الحدائي، غالباً ما تم تصوير البلاغة كعدو للاتصال. بالنسبة للحدائين، يتعلق الاتصال بالعقل والحقيقة والوضوح والفهم، أما البلاغة فتتعلق أساساً بالاتجاه التقليدي، والاصطناع والتموه والتلاعب. يمثل الاتصال الطريقة الجديدة للعلم والتنوير، بينما البلاغة، الطريقة القديمة للغموض والردة.

وبطبيعة الحال، في الفكر ما بعد الحدائي، تم عكس كل ذلك إلى حد كبير. بالنسبة لسيمائي ما بعد البنيوية، تعتبر جميع أنواع الاتصال بلاغية، إذا عنيينا بالبلاغة استخدامات اللغة التي لا يمكن من خلالها الحفاظ على المقاييس المعيارية مثل الحقيقة والوضوح والفهم. مع ذلك، ففي التقليد البلاغي لنظرية الاتصال تعني البلاغة عادة شيئاً مختلفاً وربما أكثر فائدة (انظر أعلاه). إنها تعني الاتصال المصمم لجذب الجمهور وتنوير حكمه حول قضايا مهمة للرأي والقرار. باختصار، فإن النقاش النظري بين البلاغة والسيمائية مهم عملياً لأنه في النهاية يتعلق بالأسس المعيارية لاستخدامنا اليومي لمفاهيم مثل الحكم والمعنى والحقيقة في الخطاب الشامل العملي.

3.3.. التقليد الظاهري: الاتصال كتجربة غيرية/ تجربة الآخر

في التقليد الظاهري الذي يعود بشكل رئيس إلى القرن العشرين والذي يمتد من "هوسرل" (Husserl) إلى الظاهراتيين الوجوديين والتأويليين، يتم تنظيم الاتصال، بصفته حوار/آخر أو تجربته. يفسر هذا النوع من التنظيم التفاعل بين الهوية والاختلاف في العلاقات الإنسانية الأصيلة ويعزز ممارسات الاتصال التي تجعل العلاقات الأصيلة ممكنة وتحافظ عليها.

إن الاتصال الأصيل أو الحوار، يعتمد على تجربة الاتصال المباشر وليس الاتصال الوسيطي مع الآخرين. يبدأ الفهم التواصلي في التجربة ما قبل التأملية الناتجة عن وجودنا الجسدي في عالم الحياة المشترك. وفقاً للظاهراتيين، بمجرد أن نتخلى عن الثنائيات مثل العقل والجسد، الذات والموضوع، نرى أن الاتصال مع الآخرين، المباشر ودون وساطة، هو تجربة إنسانية حقيقية وضرورية تماماً، على الرغم

من أنها قد تكون تجربة عابرة تتدهور بسهولة إلى شكل من أشكال عدم الأصالة. على سبيل المثال، عندما أشعر بنظرة باردة أو غاضبة من شخص آخر، اختبر أولاً النظرة كتعبير مباشر عن برودة الآخر أو غضب الآخر الموجه نحوي، وليس كعلامة خارجية لحالة ذهنية داخلية لدى الآخر، يمكن تفسيرها بطرق مختلفة.

وبالتالي، تتحدى الظاهراتية الفكرة السيميائية التي تفيد بأن الفهم التفاعلي لا يمكن أن يتم إلا من خلال العلامات (Stewart, 1995)، فضلاً عن الفكرة البلاغية التي تعتبر أن الاتصال يتضمن استخدامات فنية أو استراتيجية للعلامات. ومن بين تناقضات الاتصال التي تبرزها الظاهراتية هو أن السعي الواعي نحو الهدف، مهما كانت نوايا المرء حسنة، يقضي على الحوار من خلال فرض أهداف الشخص واستراتيجياته كحاجز ضد التجربة المباشرة للذات والآخر. تنشأ مشاكل الاتصال كما تفهم في التقليد الظاهراتي لنظرية الاتصال من الحاجة، وكذا من الصعوبة الكامنة- أو حتى من الاستحالة العملية - للتواصل المستمر والأصيل بين الأشخاص.

على الرغم من اللغة الغامضة التي غالباً ما يعبر بها التقليد الظاهراتي، فإنه يمكن جعله معقولاً للناس العاديين من خلال الاستخدام البلاغي للمعتقدات الشائعة بأنه يجب علينا أن نعامل بعضنا بعضاً كأشخاص (أنا-أنت) وليس كأشياء (أنا-إنه)، وأنه من المهم أن ندرك ونحترم الاختلافات، والتعلم من الآخرين، والسعي نحو أرضية مشتركة وتجنب الاستقطاب والخداع الاستراتيجي في العلاقات الإنسانية. فالعلاقة مع الآخر قد تجعلنا نكتشف فهماً فورياً يتجاوز الكلمات. نحن جميعاً نعلم، كما يؤكد الظاهراتيون بطرق مختلفة، أن الصدق هو أفضل سياسة وأن العلاقات الإنسانية الأكثر إرضاءً تتسم بالمعاملة بالمثل وعدم الهيمنة.

ومع ذلك، فالظاهراتية ليست فقط معقولة، بل أيضاً مثيرة للاهتمام من منظور عملي، لأنها تدعم الحوار كشكل مثالي للاتصال، ولكنها تُظهر أيضاً الصعوبة الكامنة في استمراره. إنها تتحدى إيماننا الشائع في موثوقية تقنيات تحقيق تواصل جيد. كما أنها تثير إشكاليات حول الاختلافات البديهية، مثل تلك التي بين العقل والجسد، والحقائق والقيم، والكلمات والأشياء.

تشارك الظاهراتية مع النظرية البلاغية في الرغبة في إيجاد أرضية مشتركة بين أصحاب وجهات النظر المختلفة، ومع السيميائية في افتراض أن جوهر المشكلة في الاتصال يتعلق بالفهم بين الأشخاص. مع ذلك، تختلف الظاهراتية اختلافاً جذرياً عن البلاغة في مسائل الأصالة مقابل التصنع، وعن السيميائية في طبيعة العلاقة بين اللغة والمعنى. قد تبدو الظاهراتية، من منظور البلاغة، ساذجة أو مثالية في مقاربة العضلات العملية التي يواجهها المرسلون الحقيقيون، بينما قد تبدو البلاغة، من وجهة نظر الظاهراتية، متشائمة بشأن إمكانية حصول اتصال بشري حقيقي. عندما يتم الجمع بين البلاغة والظاهراتية، تكون النتيجة عادة بلاغة مضادة للبلاغة حيث يتم استبدال الإقناع والعمل الاستراتيجي بالحوار والانفتاح على الآخر، أو بلاغة تأويلية (Gadamer, 1981 ; Leff, 1996).

بالنسبة للسيمائية، كما أوضح "ستيوارت" (Stewart, 1995)، فإن التقليد الظاهراتي يشكك أساسا في التمييز بين الكلمات والأشياء، وفي كون الاتصال لا يحدث إلا من خلال وساطة العلامات. وبالتالي، يمكن لمزيج السيمائية والظاهراتية أن ينتج مركبا نظريا مثيرا للتفكير. ردا على هذا التحدي ما بعد البنيوي، يرى السيميائي التقليدي بأن العلامات يجب أن تكون لها معان مستقرة لكي يحدث الاتصال فعليا (Ellis, 1995)، بينما يؤكد الظاهراتي التقليدي أن الاستخدام الاتصالي للغة هو شكل من أشكال التواصل الشخصي المباشر (Stewart, 1995).

ما هو على المحك عمليا في النقاش بين السيمائية والظاهراتية يوضحه بشكل غير مباشر "بيترز" (Peters, 1994). يتم التأكيد عادة أن التفاعل المباشر بين الأشخاص هو الشكل الأساس للتواصل الإنساني وأن الاتصال الجماهيري أو بوساطة التكنولوجيا ليس سوى بديلا فقيرا عن الاتصال البشري المباشر. ويستند هنا "بيترز" على الفرضية السيمائية التي تؤكد وجود "فجوة" متأصلة بين إرسال الرسائل واستقبالها من أجل دعم فكرة كون الاتصال الجماهيري هو في الواقع أساسي أكثر من الاتصال الشخصي. يقول: "لا توجد مسافة تعادل تلك الموجودة بين عقليين" وأن "الحوار يخفي السمات العامة للخطاب التي تكون أكثر وضوحا في النصوص، وخاصة تلك المتعلقة بحقيقة التباعد" (ص. 130). "ومع ذلك يعترف، بأن كلا من الحوار والاتصال الوسيطي مهمان، ولكن من الصعب الجمع بينهما بسبب "التوتر المستمر بين الطرق الخاصة والعامة للتخاطب" (ص. 136). فالاتصال المباشر فقط هو الذي يلبي الاحتياجات الإنسانية الأساسية "الرفقة والصدقة والحب"، لكن الاتصال الجماهيري يعبر عن "دافع نبيل بالقدر نفسه" نحو عالمية معيارية غالبا ما تتعارض مع متطلبات الألفة (ص. 136). "فالتمييز بين الاتصاليين الشخصي والجماهيري يخفي طاقات طوباوية" (ص. 136) ومن المحتمل أن ينير "محتننا ككائنات تنتمي لكل من العائلة والسياسة (ص 137)".

4.3.. التقليد السيبرنتيكي: الاتصال كمعالجة للمعلومات

ترجع أصول نظرية الاتصال الحديثة إلى التقليد السيبرنتيكي (السيبراني) وأعمال مفكرين من منتصف القرن العشرين (مثل: Shannon, Wiener, von Neumann, and Turing) (Heims, 1991; Krippendorff, 1989). يمتد هذا التقليد السيبرنتيكي إلى النظريات الحالية في مجالات متنوعة مثل علم النظم والمعلومات، وعلم الإدراك والذكاء الاصطناعي، والنظرية الاجتماعية الوظيفية، وتحليل الشبكات، والمدرسة الباتسونية للاتصال الشخصي. ينظر إلى الاتصال في التقليد السيبرنتيكي، بصفته معالجة للمعلومات وشرح كيف يمكن أن تعمل كل أنواع الأنظمة المعقدة، سواء كانت حية أو غير حية، كلية أو جزئية، ولماذا غالبا ما تفشل. تجسيدا لنموذج النقل (transmission)، تعتبر السيبرنتيكا أن مشاكل الاتصال هي أعطال في تدفق المعلومات نتيجة للضوضاء أو التحميل الزائد للمعلومات أو عدم التوافق بين البنية والوظيفة. وتقدم السيبرنتيكا موارد لحل مشاكل الاتصال تتمثل في مجموعة

متنوعة من تقنيات معالجة المعلومات، وأساليب تصميم وتحليل النظم، والإدارة، وعلى المستوى الأكثر "ليونة" التدخل العلاجي.

تستعمل السيبرنتيكا المعقولة كطريقة لتنظيم الاتصال، والتي تكمن جزئياً في استخدامها البلاغي للافتراضات الشائعة للمادية والوظيفية والعقلانية اليومية. بالنسبة للسيبرنتيكا، فإن التمييز بين العقل والمادة هو فقط تمييز وظيفي مثل ذلك الموجود بين البرمجيات والأجهزة. الفكر ليس سوى معالجة للمعلومات، لذا من المنطقي تماماً القول إن الفكر الفردي هو اتصال "ذاتي/داخل الشخص" وأن المجموعات والمنظمات تفكر أيضاً، والمجتمعات ككل تفكر، وأن الروبوتات والكائنات الاصطناعية ستفكر في نهاية المطاف. وبالتالي، تثير السيبرنتيكا إمكانية وجود عالم فيه بيانات تؤدي وظيفة قائد (Commander Data) طاقم السفينة وتكون حقا أكثر "إنسانية" من جميع الأعضاء: إن التأكيد على خلاف ذلك هو مجرد "عاطفية" غير مدروسة (انتقاد ذي حدين في هذه الحالة). لذا، فإن السيبرنتيكا مثيرة للاهتمام أيضاً وفي بعض الأحيان غير معقولة من منظور الفطرة السليمة، لأنها تبرز تشابهات مفاجئة بين الأنظمة الحية وغير الحية، وتتحدى المعتقدات الشائعة حول أهمية الوعي والعاطفة، وتتساءل عن تمييزنا المعتاد بين العقل والمادة، الشكل والمحتوى، الحقيقي والاصطناعي.

كما تشكك السيبرنتيكا أيضاً في المفاهيم التبسيطية التي تصف العلاقة بين السبب والنتيجة من خلال استنادها إلى فهمنا العام بأن عمليات الاتصال يمكن أن تكون معقدة ودقيقة جداً. على الرغم من انتمائها إلى الفكر الوظيفي التكنولوجي، فإنها تبرز مشاكل التحكم التكنولوجي والتعقيد المشوه وعدم قابلية توقع عمليات التغذية الرجعية والاحتمال الشائع بأن تكون للأفعال الاتصالية عواقب غير مقصودة رغم نوايانا الحسنة. درس عملي هام من السيبرنتيكا هو أن الكل أكبر من مجموع الأجزاء، لذا، من المهم لنا، كمتصلين، تجاوز منظوراتنا الفردية، والنظر إلى عملية الاتصال من منظور نسقي أوسع وعدم تحميل الأفراد مسؤولية العواقب النسقية التي لا يمكن لأحد التحكم فيها.

في تقييمها للتقنية وخداع الواقع، فإن للسيبرنتيكا قواسم مشتركة مع البلاغة، وتلتقي مع السيميائية في طريقة تقليصها للعمل الإنساني إلى أنظمة معالجة الرموز الأساسية أو الشاملة، وهي وهي تشبه الظاهرية بتأكيداتها على ظهور المعنى في التفاعلات بين عناصر النظام. ومع ذلك، فللسيبرنتيكا أيضاً اختلافات حادة مع كل تقليد من هذه التقاليد. إن الاتصال باعتباره بلاغة هو خطاب فني يثري الحكم العملي، لكن الاتصال كمعالجة للمعلومات هو مجرد آلية تؤدي وظائف معينة. وللسيميائية مشاكل مع المفهوم السيبرنتيكي "للمعلومات" الذي يقلص المحتوى الدلالي (معنى الرسالة) إلى وظيفة واحدة (مثل التغذية الرجعية أو تقليل عدم اليقين). وبالنسبة للظاهرية، يتطلب الاتصال الأصيل توافقاً بين التجربة والتعبير، مما يجعل الصدق ضرورياً في الحوار التخاطبي (أنا-أنت). ومع ذلك، فإن كل من السيبرنتيكي والسيميائي، يشيران إلى أننا لن نتمكن أبداً من معرفة ما إذا

كان شخص آخر (أو حتى الشخص نفسه) صادقا بهذا الشكل. من منظور سيبرنتيكي، ربما هناك طرق أفضل لتقييم موثوقية المعلومات بدلا من محاولة معرفة ما إذا كان شخص ما صادقا. لذلك، على العموم، وعلى عكس التقاليد الأخرى تشكك السيبرنتيكا في العديد من الافتراضات المعتادة لدينا حول الفروق بين أنظمة معالجة المعلومات البشرية وغير البشرية

5.3.. التقليد النفسي الاجتماعي: الاتصال كتعبير وتفاعل وتأثير

يُعتبر تقليد علم النفس الاجتماعي التجريبي في القرن 20، الذي لا يزال يسيطر على الكثير مما يسمى "علم الاتصال" (Berger & Chaffee, 1987)، الاتصال كعملية تعبير وتفاعل وتأثير. وهي عملية تُعبّر فيها سلوكيات البشر أو الكائنات الحية المعقدة الأخرى عن آليات ومواقف وسمات نفسية، ومن خلال التفاعل مع تعبيرات مماثلة لأفراد آخرين، تنتج مجموعة من التأثيرات المعرفية والعاطفية والسلوكية.

إن الاتصال، باختصار، هو العملية التي يتفاعل من خلالها الأفراد ويتبادلون التأثير. ويمكنه أن يحدث وجهًا لوجه أو من خلال وسائل إعلام تكنولوجية، وأن يكون بين اثنين أو ينتقل من فرد لعدد كبير أو من عدد كبير إلى عدد كبير. ولكنه (عكس الرؤية الظاهرية) في جميع الحالات، يتضمن عناصر متداخلة تتوسط بين الأفراد. في حين أنه بالنسبة للسيمائية، تتم الوساطة في الاتصال بواسطة العلامات وأنظمتها، وأما بالنسبة لعلم النفس الاجتماعي، فيتم ذلك بواسطة الاستعدادات النفسية (المواقف والعواطف والسمات الشخصية والصراعات غير الواعية والإدراكات الاجتماعية، الخ.) كما تتأثر بالتغيرات الناشئة من التفاعل الاجتماعي (تأثيرات تكنولوجيا وسائل الإعلام، والمؤسسات والتأثيرات بين الأفراد...).

تبعًا لهذا التصور النظري، يفسر الاتصال أسباب السلوك الاجتماعي وتأثيراته ويعزز ممارسات تحاول ممارسة الرقابة المتعمدة على تلك الأسباب والتأثيرات السلوكية. وبالتالي، تعتبر مشاكل الاتصال في التقليد النفسي الاجتماعي بمثابة مواقف تستدعي المعالجة الفعالة لأسباب السلوك بغية تحقيق نتائج محددة ومُقاسة بشكل موضوعي.

يبدو أن علم النفس الاجتماعي معقول ومفيد عمليا لأنه يستند إلى معتقداتنا العامة واهتماماتنا العملية اليومية حول أسباب وآثار الاتصال. ونظرا لطبيعتنا الإنسانية، فإننا لا نتفاجأ عندما نعلم أن أحكامنا يمكن أن تتأثر بالسياق الاجتماعي المباشر وغالبا ما تكون متحيزة بطرق متوقعة بواسطة معتقداتنا القوية، ومواقفنا وحالاتنا العاطفية. نحن نعلم أيضا أن العمليات التفاعلية في المجموعات، مثل تلك التي تتعلق بالقيادة والصراع، يمكن أن تؤثر على النتائج الجماعية. لذلك من المهم فهم هذه العلاقات السببية لإدارة هذه العمليات على نحو فعال.

في حين أنها تستند إلى هذه المعتقدات الشائعة، تتحدى النظرية النفسية الاجتماعية بعمق الفرضية البديهية التي مفادها أن البشر كائنات عقلانية. إن تأكيدها المتكرر على ضعف ولاعقلانية

الإنسان يتحدى إيماننا الفطري باستقلالنا الشخصي. بالإضافة إلى ذلك، فإن علم النفس الاجتماعي يشكك في جميع الافتراضات غير المثبتة حول التأثيرات السببية على السلوك البشري، والتي تتطلب - وتحاول توفير - أدلة تجريبية صارمة. كما ينتقد، على سبيل المثال، البلاغة لافتقارها إلى دليل على أن تقنياتها الإقناعية تعمل حقا، والسيبرنتيكا لأنها تختزل الاتصال في خوارزميات معالجة المعلومات التي تتجاهل تقلبات دوافعنا وشخصيتنا وعواطفنا. إن علم النفس الاجتماعي، كنمط من الممارسة الاجتماعية، يُثَمِّن التقنية (مثل السيبرنتيكا)، ويزعم بأن حياتنا يمكن تحسينها عن طريق التطبيق الذاتي الواعي من قبل الخبراء لتقنيات التلاعب النفسي والعلاج. وبالتالي، فإن النظرية النفسية الاجتماعية للبلاغة تميل نحو اعتبار البلاغة أسلوبا للتلاعب النفسي أكثر منه فنا خطابيا يستنير به حكم المتلقي. ومع ذلك، فإن علم النفس الاجتماعي لا يخلو من وجهة نظر أخلاقية خاصة به: فهو يفترض واجبا أخلاقيا قويا، علينا كمتصلين، لكي نتخذ خيارات مسؤولة تستند إلى أدلة علمية بشأن العواقب المحتملة لرسائلنا.

6.3. التقليد الاجتماعي-الثقافي: الاتصال ك (إعادة) إنتاج للنظام الاجتماعي

تمثل نظرية الاتصال الاجتماعي-الثقافي (السوسيوثقافي) "الاكتشاف" بالنسبة للاتصال، وذلك أساسا منذ القرن التاسع عشر وجزئيا تحت تأثير الفكر السيميائي، ضمن التقليدين الفكريين لعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا. يُنظر إلى الاتصال في هذين التقليدين بشكل نموذجي كعملية رمزية تنتج وتعيد إنتاج أنماط ثقافية مشتركة. وفقا لهذا المفهوم، يفسر الاتصال كيف يتم إنشاء النظام الاجتماعي (كظاهرة على المستوى الكلي) وتحقيقه والمحافظة عليه وتحويله في عمليات التفاعل على مستوى جزئي. نحن موجودون في بيئة اجتماعية ثقافية يتم تشكيلها والحفاظ عليها إلى حد كبير من خلال أكواد (رموز) رمزية ووسائل اتصالية. يشير مصطلح "(إعادة) الإنتاج" إلى الانعكاسية المتناقضة لهذه العملية. تعتمد تفاعلاتنا اليومية مع الآخرين بشكل كبير على الأنماط الثقافية وعلى البنى الاجتماعية الموجودة مسبقا والمشاركة. من وجهة النظر هذه، فإن تفاعلاتنا اليومية "تعيد إنتاج" بشكل كبير النظام الاجتماعي-الثقافي القائم. وهذا يعني أن التفاعل الاجتماعي هو أيضا عملية إبداعية تسمح، بل وتتطلب قدرا كبيرا من الارتجال الذي "ينتج"، ولو جماعيا وعلى المدى الطويل، النظام الاجتماعي نفسه الذي يجعل التفاعل ممكنا في المقام الأول. وبالتالي، فإن أحد المشاكل الأساسية للنظرية الاجتماعية-الثقافية هي إيجاد التوازن الصحيح، أي فرز العلاقات المعقدة بين الإنتاج وإعادة الإنتاج، الجزئي والكلي، الفعل والبنية، الثقافة المحلية والقانون الطبيعي العالمي في الحياة الاجتماعية. المحور الأساس للنقاش هو بين النظريات البنيوية التي تعطي أولوية تفسيرية للأنماط المستقرة نسبيا على المستوى الكلي والنظريات التأويلية أو التفاعلية التي تعطي الأولوية للعمليات على المستوى الجزئي والتي يتم بداخلها المشاركة في إنشاء النظام الاجتماعي محليا وبالتفاوض بين الأعضاء.

تعتبر مشاكل الاتصال في التقليد الاجتماعي-الثقافي فجوات عبر المكان (تنوع اجتماعي-ثقافي ونسبية) والزمان (تغيير اجتماعي-ثقافي) تعطل التفاعل من خلال استنزاف مخزون الأنماط المشتركة التي يعتمد عليها التفاعل. تزداد النزاعات وسوء الفهم وصعوبات التنسيق عندما تتسبب الظروف الاجتماعية في ندرة الطقوس والقواعد والتوقعات المشتركة بين الأعضاء. لذا، فإن للنظرية الاجتماعية-الثقافية الكثير لتقوله عن المشكلات الناشئة عن التغيير التكنولوجي، وانهيار الأنظمة الاجتماعية التقليدية، والتحضر والمجتمع الجماهيري، وترشيد البيروقراطية، ومؤخرا، التفتت الثقافي ما بعد الحداثي والعولمة. تؤدي هذه الاضطرابات في بيئة الرموز والوسائط إلى تعطيل التفاعل، ولكن في الوقت نفسه تمكّن الإنتاج الإبداعي لمعارف جديدة ووسائل جديدة للاتصال.

إن الهجائن بين التقليد الاجتماعي-الثقافي وغيرها من تقاليد نظرية الاتصال شائعة جدا، لدرجة أنه قد يصعب العثور على نماذج "نقية" نسبيا من نظرية الاتصال الاجتماعي-الثقافي. على سبيل المثال، فإن نظرية الفعل الاجتماعي لوسائل الإعلام تجمع بين منظورات اجتماعية-ثقافية، والظاهراتية والسيمائية (Schoening & Anderson, 1995). وأن نظرية "الإدارة المنسقة للمعنى" (CMM) تمزج بين النظرية الاجتماعية التفاعلية والمفاهيم السيبرنتيكية والحوارية (Cronen, 1995 ; Pearce, 1989). وأما "تحليل المحادثة" فله جذور تفاعلية وظاهراتية وسيمائية (Heritage, 1984).

لقد اتخذت النظرية البلاغية في القرن العشرين أيضا، منحى اجتماعيا-ثقافيا قويا، حيث غالبا ما تم تصور البلاغة كأداة لتحسين العلاقات الإنسانية. وقد أكد بعضهم بأن التكيف مع أشكال وممارسات المنظمات والمجموعات الاجتماعية والعلوم والتكنولوجيات والثقافات الفرعية والثقافات هو تعلم بلاغي دال... [على ما هو] مناسب اتصاليا لمحتويات معينة في سياقات معينة" (Arnold, 1989, p. 464). وبالتالي، يشكل النظام الاجتماع-الثقافي مواد البلاغة، بينما تتحول البلاغة إلى منهجية، سواء تم تطبيقها بوعي أو بغير وعي لتشكيل النظام الاجتماعي.

ومع ذلك، في جميع هذه التقاليد الهجينة، يُمكن سماع "صوت" اجتماعي-ثقافي مميز. إنه الصوت، على سبيل المثال، الذي ينتقد علم النفس الاجتماعي لفردانيته المفرطة، وعدم انتباهه للقوى الاجتماعية الكلية ولعدم اكترائه للاختلافات الثقافية والذي يدعو، مرارا وتكرارا، إلى ضرورة أن يعتمد البحث في الاتصال المهيم عليه علم النفس الاجتماعي لكي يتبنى نهجا ثقافيا أكثر أو اجتماعيا أكثر. كما أنه، ينتقد البلاغة الكلاسيكية بسبب افتراضاتها الساذجة حول "الفعل" (بسبب تصورهما لكبار الخطباء كمبدعين للتاريخ، مثلا) والسيمائية لأنها تفصل العلامات وعملياتها عن السياق الاجتماعي-الثقافي الأوسع الذي تعمل فيه.

إن هذا الصوت الاجتماعي-الثقافي سُمع أيضا في الخطابات الشاملة العملية اليومية. من وجهة نظر عامة جزئيا، تعتبر النظرية الاجتماعية-الثقافية معقولة لعدة أسباب منها، استخدامها البلاغي للاعتقادات الشائعة بأن الأفراد هم نتاج بيئاتهم الاجتماعية، وأن المجموعات تطور قواعد معينة

وطقوس ورؤى للعالم، وأن التغيير الاجتماعي يمكن أن يكون صعبا ومزعجا، وأن المحاولات للتدخل بشكل نشط في العمليات الاجتماعية غالبا ما يكون لها عواقب غير متوقعة. كما تشكل النظرية الاجتماعية-الثقافية في العديد من الافتراضات الشائعة، وخاصة ميولنا نحو اعتبار واقع هوياتنا الشخصية وهويات الآخرين أمرا مطلقا، واعتبار المؤسسات الاجتماعية كظواهر طبيعية حتمية، وكوننا متمركزين حول ذاتنا أو غير حساسين للاختلافات الثقافية، ونبالغ في تحميل الأفراد المسؤولية الأخلاقية عن المشكلات التي هي أساسا اجتماعية الأصل في الغالب مثل الجريمة والفقر. تعزز النظرية الاجتماعية الثقافية الممارسات الاتصالية التي تعترف بالتنوع الثقافي والنسبية، والتي تقدر التسامح والتفاهم، وتؤكد على المسؤولية الجماعية أكثر من الفردية (Bowers & Iwi, 1993).

7.3.. التقليد النقدي: الاتصال كتأمل خطابي

يمكننا إرجاع أصول النظرية النقدية في الاتصال إلى مفهوم أفلاطون للجدل السقراطي كمنهجية للوصول إلى الحقيقة في التفاعل الجدلي من خلال طرح أسئلة تثير التأمل النقدي حول التناقضات التي تظهر في العملية. وفقا لبعض أنصار مدرسة فرانكفورت (Habermas, 1984)، إن الاتصال الذي يتضمن فقط إرسال واستقبال أو مشاركة رمزية للمعاني هو في جوهره خاطئ ومشوه وغير مكتمل. لأن الاتصال الحقيقي لا يحدث إلا ضمن عملية تأمل خطابي.

إن تقليد النظرية الاجتماعية النقدية (بالمعنى الواسع) يمتد من ماركس عبر مدرسة فرانكفورت أو عبر تيارات أخرى من الماركسية المتأخرة وما بعد الماركسية إلى النظريات الحالية في الاقتصاد السياسي، والدراسات الثقافية النقدية، ونظرية الاتجاه النسوي والمدارس النظرية الأخرى المتعلقة بالحركات الاجتماعية الجديدة (مثل نظرية ما بعد الاستعمار ونظرية كوير). بالنسبة للنظرية النقدية في الاتصال، تنشأ "مشكلة الاتصال" الأساسية في المجتمع من قوى مادية وأيديولوجية تعيق أو تشوه التأمل الخطابي. وفي هكذا تصور، يفسر الاتصال كيف يتم الحفاظ على الظلم الاجتماعي من خلال التشوهات الأيديولوجية وكيف يمكن استعادة العدالة من خلال ممارسات اتصالية تسمح بالتأمل النقدي أو إيقاف الوعي من أجل كشف تلك التشوهات وبالتالي تمكين الفعل السياسي لتحرير المشاركين منها.

يبدو التقليد النقدي معقولا من وجهة نظر غير المتخصصين عندما يستند إلى المعتقدات الشائعة حول انتشار الظلم والصراع في المجتمع، والطرق التي يمكن من خلالها أن تتغلب السلطة والهيمنة على الحقيقة والعقل، وإمكانية الحوار مع الآخرين لإنتاج رؤى محررة، وتبديد الخرافات، وربما حتى إدراك أنه تم خداعنا. تستند النظرية النقدية إلى القيم الشائعة للحرية والمساواة والعقل، ولكنها تشكل في العديد من افتراضاتها الشائعة حول ما هو معقول. تتحدى هذه النظرية طبيعية النظام الاجتماعي وتطرح تساؤلات حول الصلاحية العقلانية لجميع أشكال السلطة، والتقاليد والمعتقدات التقليدية، بما في ذلك المعتقدات التقليدية حول طبيعة العقل نفسه، والتي تدعي أنها

شوهت العقل خدمة للرأسمالية، والعنصرية والأبوية. إنها تتحدى الافتراضات الشائعة حول الموضوعية والحياد الأخلاقي والسياسي للعلم والتكنولوجيا. كما تتحدى الفردانية المهيمنة في ثقافتنا والسيطرة الأيديولوجية للعقل الذرائعي (الأداتي)، والافتراض بأن العقلانية تتمثل فقط في حسابات الوسائل والغايات حيث لا يمكن اختيار هذه الغايات إلا طوعا بناءً على المصالح الفردية. إن النظرية النقدية هي - أو تحاول على الأقل أن تكون - أعمق أنواع النظريات العملية، على الرغم من أن مفهومها لما هو عملي غالبا ما يتعارض بشدة مع المفاهيم الشائعة في حول العملياتية. أساسا، في تقليد ماركس، ليس الهدف هو فهم العالم - وبالتأكيد ليس تعليم الطلاب كيفية التكيف بنجاح في العالم كما هو. الهدف هو تغيير العالم من خلال الممارسة، أو الفعل الاجتماعي الذي يعكس النظرية.

إن أي نوع من أنواع نظرية الاتصال يمكن أن يتخذ منحى تفكيريا ذاتيا ونقديا ويُنتج بالتالي تنوعا هجينا، مثل البلاغة النقدية (McKerrow, 1989) أو السيميائية النقدية (Hodge & Kress, 1993; Fairclough, 1995). والأكثر إثارة للاهتمام، من منظور التماسك الجدلي-الحواري، هي الجهود المبذولة للاعتراف بالتناقضات بين النظرية النقدية والتقاليد الأخرى من نظرية الاتصال والعمل على حلها، كما فعل، مثلا، "كونديت" و"فارل" (Condit, 1989; Farrell, 1993) في النظرية البلاغية. إن الأدبيات حول النظرية النقدية مقارنة بالنظرية الاجتماعية-الثقافية هي، بطبيعة الحال، وفيرة، بل تكاد تتداخل مع مجموع محتويات النظرية الاجتماعية الحديثة، لأن النظرية النقدية في جوهرها هي نقدٌ لإعادة إنتاج النظام الاجتماعي، الذي هو الموضوع المركزي للنظرية الاجتماعية-الثقافية.

ومع ذلك، أعتقد أن النظرية النقدية تقدم نموذجا لممارسة الاتصال يختلف جذريا عن النموذج الاجتماعي-الثقافي للاتصال ك(إعادة) إنتاج. بالنسبة للمنظرين النقيدين، فإن أي نشاط يقتصر على إعادة إنتاج النظام الاجتماعي القائم، أو حتى إنتاج نظام اجتماعي جديد، لا يعتبر -بعد- اتصالا حقيقيا. لكي يعتمد النظام الاجتماعي على فهم متبادل حقيقي (يختلف عن التلاعب الاستراتيجي أو الامتثال القهري أو الطقوس الفارغة)، يصبح من الضروري بشكل متكرر للمتصلين أن يعبروا عن افتراضاتهم المختلفة حول العالم الموضوعي، والمعايير الأخلاقية والخبرات الداخلية وأن يناقشوها علنا (Habermas, 1984, p. 75-101; Deetz, 1994).

يبدو أن النموذج النظري-النقدي للاتصال، كتأمل خطابي، يشبه المفهوم الظاهراتي للحوار، ولكنه يضيف إليه مظهرا جدليا مميزا. من منظور نقدي، يمثل الحوار الظاهراتي شكلا مثاليا من أشكال الاتصال، ولكن قد تجعله الظروف الاجتماعية والثقافية الحالية غير محتمل. لذلك، فإن نموذج الحوار يكون معيبا إذا لم يساهم في دفع المشاركين نحو التأمل في الظروف الاجتماعية والثقافية التي قد تعيق الحوار. إن التشكيك الجدلي في الافتراضات هو الذي يكشف هذه الظروف، وبالتالي تبيان الطريق نحو التغييرات الاجتماعية التي ستجعل الحوار الحقيقي ممكنا. إن نمط مماثل من الاتصال يميز أشكالا مختلفة من نقد الأيديولوجيا ورفع الوعي المبني على الاتجاه النسوي أو

الهوية. كما ينطبق بوضوح على النظرية الحديثة لـ"كريبندورف" (Krippendorff, 1995) حول "إلغاء" السلطة، وهو عمل يعتمد على أنماط سيبرنتيكية وظاهراتية لنظرية الاتصال لإنشاء نظرية نقدية هجينة تبدو متفائلة أكثر بكثير من معظم النظريات النقدية الأخرى بشأن إمكانية الفهم وحدها (في غياب عمل سياسي منسق) لتغيير العالم.

يتم انتقاد النظرية النقدية من تقاليد نظرية أخرى لكونها تسيّس العلم والدراسات الأكاديمية، ولتأكيداتها على وجود نمط معياري عالمي للاتصال يعتمد على أيديولوجية مسبقة. يعتقد بعض النقاد أن العلم يجب ألا يتدخل في الأنماط المعيارية، ويعتقد آخرون أن الأنماط المعيارية ينبغي أن تستند إلى معايير أمبريقية موضوعية. بينما يرى آخرون أن الأنماط المعيارية يمكن أن تكون نسبية ومرتبطة بثقافات محلية وممارسات اتصالية خاصة. رداً على منتقديها، تنتقد النظرية النقدية تقاليد نظرية أخرى لعدم وعيها بافتراضاتها الأيديولوجية الخاصة وادعائها الزائف الحياد السياسي. بالنسبة للمنظرين النقيدين، لا يمكن اعتبار الممارسات المحلية والنتائج الأمبريقية للاتصال قيماً بديهية، بل يجب دائماً الحكم عليها في ضوء تحليل مدروس للتأثيرات المشوهة للسلطة والأيديولوجية في المجتمع. وعلى كل، قد تكون المساهمة الأكثر فائدة للنظرية النقدية، بالإضافة إلى ارتباطها الواضح بخطاب الظلم الاجتماعي والتغيير، هي تعزيز تقدير أعمق للتأمل الخطابي كاحتمال عملي متأصل في كل اتصال. فالاتصال ليس مجرد شيء نقوم به، بل هو شيء نتحدث عنه بانتظام وبطرق متداخلة عملياً مع ممارساتنا. إن هذا الخطاب الشامل العملي لديه دائماً القدرة على التطور إلى خطاب تأملي حقيقي يدمج نظرية الاتصال بالممارسة. وبالتالي، يؤكد التقليد النقدي لنظرية الاتصال أن الخطاب التأملي، وبالتالي نظرية الاتصال نفسها، يلعبان دوراً هاماً في فهمنا وممارستنا اليوميّتين للاتصال.

4.. تطوير مجال الاتصال: تأملات ختامية

يقدم هذا العرض التمهيدي لنظرية الاتصال كمجال الكثير للتفكير فيه ويترك الكثير للقيام به. أختتم بتأملات موجزة حول أجندة العمل المستقبلي وآثارها على الممارسة التخصصية في الاتصال.

1.4.. العمل المقبل: استكشاف وإبداع وتطبيق

يشمل العمل المقبل /استكشاف المجال بغية اكتشاف القضايا الرئيسة ورسم التضاريس المعقدة للتقاليد، وإبداع (إنشاء) تقاليد جديدة لنظرية الاتصال وطرق جديدة لتمثيل المجال، وتطبيق نظرية الاتصال من خلال ربطها بالخطاب الشامل العملي حول مشاكل الاتصال. يتضمن /استكشاف مجال الاتصال التنقل بين التقاليد لاستكشاف التكاملات والتوترات، وكذا القيام بدراسة معمقة للتقاليد قبل استكشاف تعقيداتها الداخلية.

تدعونا المصنوفة النظرية لتحديد نقاط الاتفاق والاختلاف بين تقاليد نظرية الاتصال. من خلال ذلك، سنقوم بتمييز الموضوعات والمشاكل المركزية لنظرية الاتصال كمجال. وعلى سبيل المثال،

فإن مفهومي تقنية الاتصال واستراتيجيته بارزان في عدة تقاليد (البلاغة، الظاهراتية، السيبرنتيكا، علم النفس الاجتماعي، النظرية النقدية...)، ولكن التفكير عبر هذه التقاليد يصعب هذين المفهومين بطرق نظرية وعملية مثيرة للاهتمام. إن مشكلة الاستراتيجية مقابل الأصالة (البلاغة أو علم النفس الاجتماعي مقابل الظاهراتية)، ومشكلة القصيدة مقابل الوظائفية (البلاغة أو الظاهراتية مقابل السيبرنتيكا)، ومشكلة إثبات فعالية التقنيات (علم النفس الاجتماعي مقابل البلاغة)، ومشكلة العقل الذرائعي (الأداتي) كتشويه أيديولوجي (النظرية النقدية مقابل السيبرنتيكا وعلم النفس الاجتماعي). يمكن الآن التعرف على هذه المشكلات ومعالجتها كمسائل مركزية تحدد مجال نظرية الاتصال.

بينما نستكشف التقاليد بعمق، سيكون من المهم أن نأخذ الاعتبار أن كل التقاليد معقدة داخليا ومفتوحة لتفسيرات متعددة. يمكن إعادة تعريف تقاليد نظرية الاتصال وإعادة تركيبها وتهجينها وتقسيمها بطرق متنوعة. يشمل التقليد البلاغي العديد من المدارس الفكرية المتزايدة والمتنافسة، كما هو الحال مع السيميائية والظاهراتية وغيرهما. قد تبدو المجالات النظرية مثل وظائف الرسوم البيانية التي لها نفس الخصائص الشكلية في كل مستوى من المستويات التفصيلية. فكل تقليد من تقاليد نظرية الاتصال هو في حد ذاته مجال معقد، وعند تكبيره، يُظهر بنية مجال حوار-جدلي لعدة تقاليد شبيهة بنظرية الاتصال ككل. وإذا قمنا بالتكبير لإظهار مستوى أدق، فإن مجال نظرية الاتصال يدمج في تقليد فكري واحد ضمن مجال معقد من العلوم الإنسانية. إن الطريقة المثالية و"سهلة الاستعمال" لتمثيل نظرية الاتصال قد تكون في شكل نص تفاعلي يسمح لنا بمتابعة الموضوع عبر مسارات كثيرة من خلال وصلات تشعبية عبر مستويات مختلفة تؤدي إلى تقاليد هجينة وتصورات بديلة وتخصصات ذات صلة، وسجلات ملتيميديا لممارسات اتصالية تربط بين النظرية والتطبيق.

إن إنشاء نظرية جديدة هو مهمة ستحتاج إليها بالضرورة جهودنا لاستكشاف هذا المجال، حيث سنتعثر في الفجوات المفاهيمية والأفكار الجديدة وأشكال وممارسات جديدة للاتصال. يستند كل تقليد من التقاليد السبعة على نموذج فريد من الممارسة الاتصالية، يختلف جوهريا عن كل التقاليد الأخرى في المصنوفة، والتي تشكل مجموعة متميزة من البدائل، ولكنها غير شاملة، لكونها مفتوحة منطقيا أمام تقاليد جديدة، مع وجوب أن يستند كل تقليد جديد إلى نموذج فريد من الممارسة الاتصالية، والذي عند دمجها في المجال قد يتضمن إعادة تعريف تقاليد أخرى. وعلى سبيل المثال، يمكن إعادة بناء أي من التقاليد التالية لإنشاء تنظيرات متميزة للممارسة الاتصالية:

* تقليد الاتجاه النسوي (feminism) حيث يمكن نظريا اعتبار الاتصال /ارتباطا بالآخرين وبالتالي إظهار التركيز المميز الذي يضعه العديد من النساء على التفكير والسلوك السياقيين، والتركيز على أهمية الحديث وفائدته، والترابط، والعلاقات" (Foss & Griffin, 1989, p. 157 ; Kramarae, 1989, p. 157)

(1996). كيف سيختلف هذا النموذج الاتصالي عن النموذج الظاهراتي للحوار؟ وكيف سيُموّقع الاتجاه النسوي في علاقته بالنظرية النقدية؟

* تقليد جمالي يمكن تنظير الاتصال فيه كأداء متجسد، مما يبرز الجانب "الشعري" للاتصال في إنشاء طقوس وعلاقات ومعانٍ وحقائق (انظر مثلاً: Hopper, 1993 ; Conquergood, 1992). كيف قد يختلف ذلك عن التقاليد السيميائية والاجتماعية الثقافية للاتصال؟ وكيف يمكن له إعادة تموقع البلاغة والنظرية النقدية في هذا المجال (Conquergood, 1992 ; Laffoon, 1995)؟

* تقليد اقتصادي حيث يمكن نظرياً اعتبار الاتصال تبادلاً، مما يبرز أن كل رسالة (أي شيء يمكن نقله من فاعل إلى آخر) لها قيمة تبادلية تعادل معناها. كيف سيبدو هذا التقليد، إذا تم إعادة بنائه وفصله عن تشابكاته المتعددة مع تقاليد أخرى مثل النظرية النقدية (Schiller, 1994)، والظاهراتية (Chang, 1996)، وعلم النفس الاجتماعي (Roloff, 1981)؟

* تقليد روحي قد يتصور الاتصال كتواصل على مستوى وجودي لامادي أو باطني (صوفي)، مما يكشف في نهاية المطاف عن جذور مجتمعية مقدسة- واعتماده عملياً على الإيمان - في مجال خبرة يتجاوز التاريخ وكل الاختلافات البشرية (Cooper, 1994 ; Crawford, 1996; Pym, 1997 ; Ramsey, 1997). كيف يمكن لهذا المجتمع المتسامي أن يتداخل مع أنواع أخرى من التسامي التي تقترحها الظاهراتية (في الحوار)، والنظرية الاجتماعية-الثقافية (في الثقافة) وفي النظرية النقدية (في التأمل)؟ إذا كانت هذه الأمثلة تبدو سهلة، فلننظر في المعيار الصارم الذي يفرض على أي تقليد جديد أن يسهم في نظرية فريدة من نوعها للممارسة الاتصالية. على سبيل المثال، قد تبدو فكرة تقليد بيولوجي لنظرية الاتصال معقولة، نظراً للاهتمام الحديث بالمقاربات البيولوجية للاتصال، لكنني لست على علم بأي طريقة بيولوجية متميزة لتنظير الممارسة الاتصالية لم تكن ستوصف بشكل أفضل على أنها سيميائية، نفسية اجتماعية أو سيبرنتيكية (كما في دراسات معالجة المعلومات الجينية أو حلقات ردود الفعل في النظم البيئية). إن تنظير الممارسة الاتصالية كوسيط من خلال العلامات (السيميائية)، أو التفاعل (علم النفس الاجتماعي)، أو معالجة المعلومات (السيبرنتيكا) يمكن تفسيره عن طريق مبادئ بيولوجية مثل تلك المتعلقة بالتنمية العضوية أو التطور عن طريق الانتقاء الطبيعي (Cappella, 1991, 1996; Horvath, 1995)، ولكنني لا أعرف أي تصور بيولوجي فريد للممارسة الاتصالية نفسها. إن أي تقليد لا يفي بهذا المعيار الصارم هو منطقياً خارج مجال نظرية الاتصال.

هذا لا يستبعد بالطبع إمكانية اكتشاف أو اختراع نظرية بيولوجية للاتصال. فهناك أفكار جديدة تظهر باستمرار في الخطاب الأكاديمي وقد تقترح طرقاً جديدة لتنظير الاتصال. كما يمكن لتنظيرات جديدة للاتصال أن تنشأ من النظرية العملية المتجذرة من خلال الدراسة النقدية وإعادة البناء المفاهيمي للممارسات الاتصالية في أي تقليد ثقافي أو سياق محلي (Craig & Tracy, 1995).

من حيث المبدأ، إذن، لدينا كل الأسباب للاعتقاد بأن تقاليد جديدة لنظرية الاتصال ورؤى جديدة عن التقاليد القديمة سيستمر اكتشافها أو إبداعها.

يستلزم تطبيق نظرية الاتصال استعمال تقاليد الخطاب الشامل النظري والخطاب الشامل العملي لمعالجة مشاكل الاتصال الحقيقية. ففي مثل هذه العملية التطبيقية يمكن اختبار نظرية الاتصال بشكل منطقي أكثر لتحديد أهميتها وفائدتها في توجيه السلوك ونقد الممارسة. إن كل التقاليد توفر مفردات خطاب شامل يمكن من خلالها تصور ومناقشة مشاكل وممارسات الاتصال. كما أن إتقان مفردات متعددة من نظرية الاتصال يجعل من الممكن فحص مشاكل الاتصال من وجهات نظر مختلفة وتطبيق مفردات مناسبة ومفيدة في كل حالة. ولأن كل تقليد يستقطب بعض المفاهيم العامة للخطاب الشامل ويتحدى أخرى، فإن كل المفردات تمتلك القدرة على إثارة وتنبيه تفكير اتصالي شامل، يمكن أن يتحرك عبر سلسلة متصلة بين النظرية والتطبيق، مما قد يتيح تطبيق نظرية الاتصال في نشاط واحد.

2.4.. تداعيات ممارسة التخصص في دراسات الاتصال

يتمثل التداعي الرئيس لممارستنا التخصصية في أنه يجب الآن أن يكون لكل منظري الاتصال شيئاً مهماً جداً للمناقشة - الممارسة الاجتماعية للاتصال - لذا علينا التوقف عن تجاهل بعضنا بعضاً والبدء في توجيه عملنا نحو مجال نظرية الاتصال، والذي قد يتحقق نتيجة قيامنا بذلك. ولكن ماذا يعني هذا بالضبط؟ أقترح -بمعنى (Anderson, 1996)- ثلاثة أشياء: أ) التوجه إلى مجال الاتصال كمجموعة واسعة من التخصصات؛ ب) الانتباه إلى الأهمية الخاصة لمجال الاتصال بالنسبة للبحوث متعددة التخصصات؛ ج) تعليم طلابنا في مجال الاتصال.

لمزيد من التفاصيل، هذا يعني:

1- أن منظري الاتصال، على الرغم من تناولهم بشكل عام موضوعات متخصصة، ينبغي أن توجه كتاباتهم نحو مجال الاتصال ككل. وهذا يعني أنه يجب عليهم أن يكونوا على بينة من التقاليد المهمة لنظرية الاتصال، ومعالجة الموضوعات والقضايا المركزية للمجال، وتسليط الضوء على النتائج العملية، والاستجابة للاهتمامات والانتقادات المتوقعة من التقاليد الأخرى. نظراً لواقع التخصص الأكاديمي، لا يمكن توقع أن باحثاً واحداً يمكنه أن يفهم بعمق كل التقاليد. وبالتالي، قد لا تكون المناقشات بين التقاليد مبتكرة دائماً وقد تكون أحياناً ساذجة فنياً في بعض النواحي. ستستمر الإشارة إلى الأهمية الميدانية للعمل وتوفير مداخل (ومحفزات مثيرة) لباحثين آخرين أكثر انخراطاً في التقاطعات بين بعض التقاليد النظرية، بغية تصحيح الأخطاء، وتوضيح القضايا، ونقل النقاش إلى مستويات أعمق. هذا هو ما قد يبدو عليه التماسك الحواري-الجدلي في الممارسة.

2- أن المصفوفة النظرية تقترح كل من المركزية متعددة التخصصات والتركيز التخصصي في دراسات الاتصال. يشير كل تقليد إلى مجالات البحث متعددة التخصصات (في الاتصال السياسي،

السيمائية والدراسات الثقافية، الفلسفة، علم المعلومات، الخ.) التي يمكن إثرائها بوجهات نظر أخرى من نظرية الاتصال. فثلا، أكد "تريسي" (Tracy, 1990) على مقارنة تواصلية خاصة بدراسات الخطاب متعددة التخصصات وتتميز باهتماماتها المعيارية والتطبيقية، وبوعمها بالجمهور وتركيزها على المشكلات والاستراتيجيات. تشير هذه الميزات إلى وجود خليط من التأثيرات البلاغية والنفسية الاجتماعية وغيرها من تأثيرات نظرية الاتصال. إن المنظرين الذين تغذهم تقاليد مجالهم لديهم الفرصة لتجاوز التجزئة المنتجة والمساهمة أكثر في دراسات متعددة التخصصات.

3- أن الذين يدرسون نظرية الاتصال يواجهون تحديات فريدة. يأتي طلبة التدرج إلى دروس الاتصال من أجل شيء عملي، ونقدم لهم محتوى نظرياً. يتوقعون أشياء واضحة، وتقدم لهم أجزاء من موضوع لا يستطيع أحد فهمه -وصل عدد النظريات إلى 249 ولا يزال في تزايد-. يدعو التحليل في الجدولين 1 و 2 إلى منهجية تعليمية (بيداغوجيا) تعالج المجال ككل كمصدر للتفكير في القضايا العملية، وإلى الانتقال من نظرة عامة سطحية إلى عمق أكبر في المجال، بغية ترسيخ الاهتمامات العملية بعمق أكبر.

يجب أيضاً على طلاب الدراسات العليا معرفة كيفية استخدام نظرية الاتصال بطرق أخرى. فالذين يريدون القيام ببحوث أصلية "لا يمكنهم تجاهل الحاجة إلى التخصص منهجياً، وبالتالي نظرياً" (Reeves, 1992, p. 238). إن "مهمة" تعلّم نظرية الاتصال في مستوى متقدم تصبح أسهل قليلاً للمتخصصين في كل تقليد والذين يمكنهم بالتالي التركيز على الصفوف والأعمدة "الخاصة بهم" من الجدول 2، أي على الإشكالات الموجودة بين تقليدهم والتقاليد الأخرى. أما خلايا الجدول الأخرى، فيمكن، في الأساس، أن تترك للمتخصصين في تقاليد أخرى.

استناداً إلى أحد تقاليد نظرية الاتصال، يمكننا أن نعتبر الجدولين 1 و 2 كدعامة لبناء خطة إبداعية بلاغية -خطة لمفاهيم مشتركة وحجج نموذجية- يمكن أن تساعد في إعداد طلبة الاتصال للمشاركة في خطاب التخصص بشكل عام، تماماً كما يقوم فن الخطابة بإعداد المواطنين للمشاركة في خطاب الشؤون العامة. يستند فن البلاغة إلى "المشترك" أو "العام" أو "الاجتماعي" من المعرفة التي تم بالفعل مشاركتها بين أعضاء الجمهور. وبالمثل، يحدد مجال نظرية الاتصال مساحة خطابية مشتركة-مساحة للخطاب الشامل النظري- الذي يمكن بداخله أن تتناقش خطابات نظرية أكثر تخصصاً فيما بينها ومع الخطاب الشامل العملي حول الاتصال كممارسة اجتماعية. إن مجال نظرية الاتصال ليس مستودعاً للحقائق المطلقة. فلا يدعي أكثر من أن يكون مفيداً.

5.. الهوامش

(1) ترجمة بتصرف لمقال: Robert T. Craig (1999), Communication Theory as a Field, Communication Theory, volume 9 N° 2.

<https://doi.org/10.1111/j.1468-2885.1999.tb00355.x>

6.. المراجع

- Anderson, J. A. (1996). *Communication theory: Epistemological foundations*. New York: Guilford Press.
- Arnold, C. C. (1989). Rhetoric. In E. Barnouw, G. Gerbner, W. Schramm, T. L. Worth, L. Gross (dir.), *International encyclopedia of communications* (Vol. 3, pp. 461-465). New York: Oxford University Press.
- Berger, C. R. (1997). *Planning strategic interaction: Attaining goals through communicative action*. Mahwah, NJ : Erlbaum.
- Berger, C. R., Chaffee, S. H. (dir.). (1987). *Handbook of communication science*. Newbury Park, CA: Sage.
- Bitzer, L. F. (1968). The rhetorical situation. *Philosophy and Rhetoric*, 1, 1-14.
- Bowers, J., Iwi, K. (1993). The discursive construction of society. *Discourse & Society*, 4, 357-393.
- Budd, R. W., Ruben, B. D. (dir.). (1972). *Approaches to human communication*. Rochelle Park, NJ: Hayden.
- Cappella, J. N. (1991). The biological origins of automated patterns of human interaction. *Communication Theory*, 1, 4-35.
- Cappella, J. N. (dir.). (1996). Symposium: Biology and communication. *Journal of Communication*, 46(3), 4-84.
- Carey, J. W. (1989). *Communication as culture: Essays on media and society*. Winchester, MA : Unwin Hyman.
- Chang, B. G. (1996). *Deconstructing communication: Representation, subject, and economies of exchange*. Minneapolis : University of Minnesota Press.
- Condit, C. M. (1989). The rhetorical limits of polysemy. *Critical Studies in Mass Communication*, 6, 103-122.
- Conquergood, D. (1992). Ethnography, rhetoric, and performance. *Quarterly Journal of Speech*, 78, 80-97.
- Cooper, T. W. (1994). Communion and communication: Learning from the Shuswap. *Critical Studies in Mass Communication*, 21, 327-345.
- Craig, R. T. (1989). Communication as a practical discipline. In B. Dervin, L. Grossberg, B. J. O'Keefe, E. Wartella (dir.), *Rethinking communication: Vol. 1. Paradigm issues* (97-122). Newbury Park, CA : Sage.
- Craig, R. T., Tracy, K. (1995). Grounded practical theory: The case of intellectual discussion. *Communication Theory*, 5, 248-272.
- Crawford, L. (1996). Everyday tao: Conversation and contemplation. *Communication Studies*, 47, 25-34.
- Cronen, V. E. (1995). Coordinated management of meaning: The consequentiality of communication and the recapturing of experience. In S. J. Sigman (dir.). *The consequentiality of communication* (17-65). Hillsdale, NJ : Erlbaum.
- Dance, F. E. X. (1970). The "concept" of communication. *Journal of Communication*, 20, 201-210.
- Deetz, S. A. (1994). Future of the discipline: The challenges, the research, and the social contribution. In S. A. Deetz (dir.), *Communication Yearbook 17* (565-600). Thousand Oaks, CA : Sage.
- Ellis, D. G. (1995). Fixing communicative meaning. *Communication Research*, 22(5), 515-544.
- Fairclough, N. (1995). *Critical discourse analysis: The critical study of language*. New York: Longman.
- Farrell, T. B. (1993). *Norms of rhetorical culture*. New Haven, CT : Yale University Press.
- Foss, S. K., Griffin, C. L. (1995). Beyond persuasion: A proposal for an invitational rhetoric. *Communication Monographs*, 62, 2-18.
- Gadamer, H.-G. (1981). *Reason in the age of science* (F. G. Lawrence, Trans.). Cambridge, MA : MIT Press.
- Habermas, J. (1984). *The theory of communicative action: Vol. I. Reason and the rationalization of society* (T. McCarthy, Trans.). Boston : Beacon Press.
- Heims, S. J. (1991). *The cybernetics group*. Cambridge, MA : MIT Press.
- Heritage, J. (1984). *Garfinkel and ethnomethodology*. Cambridge, UK : Polity Press. *RICSP*, 2009, n. 1, p. 1-42.
- Hodge, R., Kress, G. (1993). *Language as ideology* (2^d edition). London : Routledge.
- Hopper, R. (dir.). (1993). Performance and conversation [Special issue]. *Text and Performance Quarterly*, 13, 113-211.
- Horvath, C. W. (1995). Biological origins of communicator style. *Communication Quarterly*, 43, 394-407.
- Katriel, T., Philipsen, G. (1981). "What we need is communication": "Communication" as a cultural category in some American speech. *Communication Monographs*, 48, 301-317.
- Kramarae, C. (1989). Feminist theories of communication. In E. Barnouw, G. Gerbner, W. Schramm, T. L. Worth, L. Gross (dir.), *International encyclopedia of communications* (Vol. 2, pp. 157-160). New York : Oxford University Press.
- Krippendorff, K. (1989). Cybernetics. In E. Barnouw, G. Gerbner, W. Schramm, T. L. Worth, L. Gross (dir.), *International encyclopedia of communications* (Vol. 1, pp. 443-446). New York : Oxford University Press.
- Krippendorff, K. (1995). Undoing power. *Critical Studies in Mass Communication*, 12, 101-132.
- Krippendorff, K. (1997). Seeing oneself through others' eyes in social inquiry. In M. Huspek G., P. Radford (dir.), *Transgressing discourses: Communication and the voice of other* (47-72). Albany, NY : SUNY Press.

- Kuhn, T. S. (1970). *The structure of scientific revolutions* (2^d edition). Chicago: University of Chicago Press.
- Laffoon, E. A. (1995). Reconsidering Habermas' conception of performance. In S. Jackson (dir.), *Argumentation and values: Proceedings of the ninth SCALFA conference on argumentation* (pp. 267-273). Annandale, VA : Speech Communication Association.
- Leff, M. (1996). The idea of rhetoric as interpretive practice: A humanist's response to Gaonkar. In A. C. Gross W. M. Keith (dir.), *Rhetorical hermeneutics: Invention and interpretation in the age of science* (89-100). Albany, NY : SUNY Press.
- Littlejohn, S. W. (1982). An overview of contributions to human communication theory from other disciplines. In F. E. X. Dance (dir.), *Human communication theory: Comparative essays* (243-285). New York : Harper & Row.
- Littlejohn, S. W. (1996). *Theories of human communication* (5th edition). Belmont, CA : Wadsworth.
- Manetti, G. (1993). *Theories of the sign in classical antiquity*. Bloomington : Indiana University Press.
- McKeon, R. (1957). Communication, truth, and society. *Ethics*, 67, 89-99.
- McKerrow, R. E. (1989). Critical rhetoric: Theory and praxis. *Communication Monographs*, 56, 91-111.
- McLuhan, M. (1964). *Understanding media: The extensions of man*. New York: McGraw-Hill.
- Pearce, W. B. (1989). *Communication and the human condition*. Carbondale : Southern Illinois University Press.
- Peters, J. D. (1986). Institutional sources of intellectual poverty in communication research. *Communication Research*, 13, 527-559.
- Peters, J. D. (1989). John Locke, the individual, and the origin of communication. *Quarterly Journal of Speech*, 75, 387-399.
- Peters, J. D. (1994). The gaps of which communication is made. *Critical Studies in Mass Communication*, 11, 117-140.
- Pym, A. (1997). Beyond postmodernity: Grounding ethics in spirit. *Electronic Journal of Communication*, 7(1). [En ligne: <http://www.cios.or~getfile\Pym-V7N197>].
- Ramsey, R. E. (1997). Communication and eschatology: The work of waiting, an ethics of relief, and areligious religiosity. *Communication Theory*, 7, 343-361.
- Reeves, B. (1992). Standpoint: On how we study and what we study. *Journal of Broadcasting and Electronic Media*, 36, 235-238.
- Roloff, M. E. (1981). *Interpersonal communication: The social exchange approach*. Beverly Hills, CA: Sage.
- Schiller, D. (1994). From culture to information and back again: Commoditization as a route to knowledge. *Critical Studies in Mass Communication*, 11, 93-115.
- Schoening, G. T., Anderson, J. A. (1995). Social action media studies: Foundational arguments and common premises. *Communication Theory*, 5, 93-116.
- Shannon, C., Weaver, W. (1948). *The mathematical theory of communication*. Urbana : University of Illinois Press.
- Shepherd, G. J. (1993). Building a discipline of communication. *Journal of Communication*, 43(3), 83-91.
- Shotter, J. (1997). Textual violence in academe: On writing with respect for one's others. In M. Huspek, G. P. Radford (dir.), *Transgressing discourses: Communication and the voice of other* (17-46). Albany, NY : SUNY Press.
- Sigman, S. J. (Ed.). (1995). *The consequentiality of communication*. Hillsdale, NJ : Erlbaum.
- Stewart, J. (1995). *Language as articulate contact: Toward a post-semiotic philosophy of communication*. Albany, NY : SUNY Press.
- Taylor, T. J. (1992). *Mutual misunderstanding: Scepticism and the theorizing of language and interpretation*. Durham, NC : Duke University Press.
- Tracy, K. (1990). Framing discourse research to speak to issues of communicative practice. *Text*, 10, 117-120.
- Tracy, K. (forthcoming). Discourse analysis in communication. In D. Schiffrin, D. Tannen, H. Hamilton (dir.), *Handbook of discourse analysis*. Oxford, UK : Blackwell.